الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علـــى أشـــرف الأنبيـــاء والمرسلين، أما بعد:

فقد مر جمع السيرة النبوية وتدوينها بمراحل، في كل مرحلـــة بـــرز مجموعة من الرواة والكتاب والمصنفين الذين تصدوا للتأليف في هذا الفن ذي الصلة بذات المصطفى ﷺ وتاريخ حياته.

لقد كانت السيرة النبوية محط أنظار المسلمين في القرن الأول، وجاء تدوين أخبارها بصورة أولية على يد مجموعة من علماء التابعين، كعروة ابن الزبير (ت:٩٤هـ) والزهري (ت:١٢٤هـ) ثم جـــاء ابـــن إســـحاق (ت:١٥١هـ) لِيُخْرِج عملاً تاريخياً يشمل السِّيَرْ والمغازي، ويعني ذلـــك فترة الرسالة بأكملها. وجاء من بعد ابن إسحاق من عـــني بالمغـــازي كالواقدي (ت:٢٠٧هـ).

وشهدت المراحل التي تلت التدوين الأَوَّلي وعَمَلَي ابـــن إســـحاق والواقدي تنوعاً في مجالات التأليف في السيرة واتجاهاً نحـــو الكتابـــة في موضوعات جديدة في محيط السيرة أبرزها دلائل النبوة وأعلامها. ولعل من أبرز المصنفين في تلك الموضوعات الحافظ المشرقي أبا بكر البيهقـــي (٤٥٨هـ) صاحب كتاب "دلائل النبوة ومعرفة أحوال الشريعة" وهـــو

كتاب جامع لا يقتصر على الدلائل كما قد يوحي بذلك العنوان حيث شمل المبعث والمغازي واستوعب مراحل السيرة كافة.

وإلى جانب البيهقي برز مجموعة من العلماء في القرنين الخامس والسادس تناولوا جوانب من السيرة بإفراد كأبي نعيم الأصبهاني والبغوي والتيمي الأصبهاني ثم ابن الجوزي، وفي الأندلس ظهرت مؤلفات لعدد من العلماء في السيرة النبوية بمراحلها التاريخية أو في جوانب منها كجوامع السيرة لابن حزم، والدرر لابن عبد البر، والشفا "وهو في الشمائل" للقاضي عياض (ت:٥٤٤هـ).

وإن قراءة سريعة لما أُلِّف عن السيرة النبوية في القرنين الخامس والسادس الهجريين عصر البيهقي والبغوي وابن الجوزي في المشرق والقاضي عياض وابن المقري الغرناطي في المغرب والأندلس، لتقودنا إلى مجموعة من الملحوظات منها: أن معظم مَنْ أَلَّف فيها هم من كبار علماء عصرهم وممن عرفوا بجمع الآثار والسنن، كما نلحظ ذلك التنوع في مجالات التأليف في السيرة حيث نجد المؤلف الشامل إلى جانب المؤلف المتخصص في أحد الموضوعات، كما نجد المؤلف المختصر الموجز، إلى جانب المؤلف المتبسط، كما اتسم معظم تلك المؤلفات بالجمع بين مرويات أهل المغازي والسير وبين الروايات والأخبار المنتشرة في دواوين السنة وغيرها من المجامع والأجزاء الحديثية.

وقد تلا أولئك العلماء الحُفَّاظ مجموعة من العلماء المحققين الموسوعيين في القرن الثامن الهجري، كالذهبي وابن القيم وابن كثير،

وقد تميزوا بقدرتهم العلمية القوية وعنايتهم بالحديث والأثر، وامتلاك الأدوات المنهجية والوعي النقدي مما هيأهم للقيام بجهد يتجاوز مجرد الجمع والتدوين إلى غربلة ما جمع من روايات وأخبار ومراجعتها وبناء فقه مستنبط من وقائع السيرة العطرة، وغير ذلك من سمات الإسهام النوعي المتميز في مجال كتابة السيرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

ويلفت نظر الباحث في هذا الواقع الجهد الذي قام به ابن كثير في كتابه "السيرة النبوية"، حيث نرى عناية بجمع الروايات من مصادرها وعناية بالأسانيد ونقدها، واستيعاباً لجهد من سبقه من العلماء، هذا الجهد الجمعي اللافت للنظر في مراجعة ونقد متون المرويات التي يوردها في السيرة، هذا ما سوف تحاول هذه الدراسة الإجابة عنه.

ومن الله نستمد العون والتوفيق.



مقدمة

جاء ابن كثير في عصر نشط فيه التأليف في كل فن من فنون الدراسات الدينية والعربية، ومن الطَّبَعي أن يكون التأليف في ميدان السيرة النبوية مواكباً لهذا النشاط الذي استقى موارده ونصوصه من الثروة الضخمة من الكتب والآراء والروايات التي سجلها العلماء والمحدثون والحفاظ قبل ذلك العصر.

لقد شهد القرن الثامن الهجري في مصر والشام المملوكيتين، ظهور عدة مؤلفين في مجال السيرة النبوية، أخرجوا مؤلفاتهم في هذا الفن على نحوٍ مفرد أو ضمن مؤلف موسوعي كبير.

ومن هؤلاء المؤلفين "عبد المؤمن بن خلف الدمياطي" (ت:٧٠٥هـ) وله كتاب: "المختصر في سيرة سيد البشر"، وكتاب "أسماء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم"[١]، وشيخ ابن كثير كمال الدين بن الزملكاني (ت:٧٢٦هـ).

(١) صلاح الدين المنجد: معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ. بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ١٤٠٢هـ، ص:١٢٥-١٤٣.

وله كتاب في مولد النبي ﷺ ، أشار إليه ابن كثير، وذكر أنه تضمن شيئاً في فضائل النبي ﷺ وأنه عقد فصلاً في هذا الباب فأورد فيه أشـــياء حسنة، ونبَّه على فوائد مهمة، وترك أشياء أُخر حسنة[1].

ومن المؤلفين كذلك، ابن سيد الناس: محمد بن محمد بن سيد الناس الأندلسي الإشبيلي، ولد بالقاهرة سنة (٦٧١هـ)، وتفقه على مــذهب الشافعي، من شيوخه، والده، وابن دقيق العيد (ت:٧٠٢هـ)[2] والحافظ المزي، وشيخ الإسلام ابن تيمية[3].

ألَّف في السيرة "عيون الأثر في فنون المغازي والسير". ومن ميــزات هذا الكتاب تلك الدراسة النقدية التي جاءت في مقدمة الكتاب عن أبرز من ألَّف في السير والمغازي من الرواة الإخباريين، وهما: ابــن إســحاق والواقدي[4]، إضافة إلى شرحه للغريب من الألفاظ وذكـــره للفوائــد والتعليق على بعض المتون[5].

---

(١) البداية والنهاية. تحقيق عبد الله التركي بالتعاون مع مؤسسة البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر. القاهرة، ط١، ١٤٢٠هـ، ج٩، ص:٣٠٨.

(٢) ابن كثير: المصدر السابق، ج١٨، ص:٣٧٢-٣٧٣.

(٣) انظر: الصفدي: صلاح الدين خليل بن إيبك (ت:٧٦٤هـ): أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد، دمشق. دار الفكر، ط١، ١٤١٨هـ، ٦٥٣/٥.

(٤) ج١٠، ص: ٨-٢٨.

(٥) انظر على سبيل المثال: ١٩١/١، ١٩٩، ٣٠٢، ٢٠٥/٢.

ومن المؤلفين الشاميين قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور الحلبي (ت:٧٣٥هـ) وله "المورد العذب الهني في الكلام على سيرة عبد الغني"[١].

ومحمد بن أحمد بن عبد الهادي (ت:٧٤٤هـ) وهو من تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية، والمزي، والذهبي، وقد ألف في السيرة جزءاً في مولد النبي ﷺ، وجزءاً في المعجزات والكرامات[٢].

ليس مهماً رصد ما ألف في السيرة في عصر ابن كثير بقدر ما يهمنا معرفة مدى التنوع والجدة في العرض ومقدرة أولئك المؤلفين على تنقية الروايات وتمحيصها وتجاوز صناعة الجمع والاقتباس إلى النقد والتقويم.

لقد شهدت بلاد الشام ظهور مدرسة اجتهادية تأسست على علوم الحديث والسنة وعلى صحيح المنقول وصريح المعقول، مثّلها الإمام المجتهد ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ) وتلاميذه وأبرزهم الذهبي وابن القيم وابن كثير. إضافة إلى الإمام الحافظ المزي (ت:٧٤٢هـ) وغيرهم من الأئمة المجتهدين، وقد جمع رموز هذه المدرسة بين التمسك بالنصوص والعقلية النقدية.

---

(١) المنجد: معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ ، ص: ١٢٨، وعبد الغني هو عبد الغني بن عبد الواحد الجماعيلي، الإمام الحافظ (ت:٦٠٠هـ)، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص:٤٤٣-٤٤٨.

(٢) ابن رجب: زين الدين بن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ): الذيل على طبقات الحنابلة، بيروت، دار المعرفة، ج٢، ص:١٣٨.

ومن مصنفات الذهبي وابن القيم، وكذلك ابن كثير تتجلى تأثيرات هذه المدرسة حيث يلمس الدارس العناية بتنقية الأخبار وتمحيصها ونقد متونها، فالذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت:٧٤٨هـ)، يُعدُّ من أبرز علماء عصره الذين ألفوا في تاريخ الإسلام على نحوٍ عام، وقد جاء ما دونه في السيرة النبوية مضمناً في كتابه الشامل "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام" موزعة على جزأين: الأول "المغازي"، والثاني "السيرة النبوية"، وهو الترجمة النبوية، وقد قدَّم المغازي؛ لأنَّ من منهجيته تقديم الحوادث التي أسهم فيها صاحب الترجمة على الترجمة ذاتها[1]، وينبه الذهبي على ما ينتاب بعض الأسانيد من ضعف ونكارة، كقوله بعد إيراده رواية البراء في خبر سواد بن قارب، هذا حديث منكر بالمرة، ومحمد بن تراس وزياد مجهولان لا تقبل روايتهما وأخاف أن يكون موضوعاً على أبي بكر بن عياش، ولكن أصل الحديث مشهور[2].

ومن نقده الموجه للمتن: نقده لرواية عبد الرحمن بن غزوان[3] بسنده إلى أبي موسى الأشعري في سفر النبي ﷺ إلى الشام بصحبة أبي طالب،

(١) محمد محمود حمدان، مقدمة تحقيق المغازي من تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي، القاهرة، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ، ص:٣٥، عبد السلام تدمري، مقدمة تحقيق "السيرة النبوية" من تاريخ الإسلام، بيروت، ١٤٠٧هـ، ٥٨١/٢.

(٢) تاريخ الإسلام "السيرة النبوية" تحقيق، عبد السلام تدمري، ص:٢٠٦.

(٣) عبد الرحمن بن غزوان، أبو نوح حدَّث عنه أحمد، له مناكير، توفي سنة (٢٠٧هـ) ببغداد، الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي البجاوي، بيروت، دار المعرفة، ج٢ ص٥٨١.

وأشياخ من قريش ولقائه بحيرى الراهب[1]، وهو نقد مشهور، استند إلى معايير تاريخية وعقلية وحلل الخبر تحليلاً علمياً من جميع جوانبه في أحداثه وألفاظه ودلالاته، واستخدم عقله والأدلة التاريخية ليثبت بطلانه[2]، وهي خطوات تنبئ عن تمكن الذهبي العلمي ورسوخ قدمه في ميدان نقد متون الروايات.

وفي كتبه الأخرى ناقش الذهبي العديد من الروايات في ميدان السيرة النبوية، ففي ميزان الاعتدال، ردَّ رواية عمر بن حَكَّام عن شعبة بسنده إلى أبي سعيد الخدري وفيها أن ملك الروم أهدى إلى رسول الله ﷺ هدايا فكان فيها جرة زنجبيل.

قال الذهبي: هذا منكر من وجوه:

أحدها: أنه لا يعرف أن ملك الروم أهدى شيئاً إلى رسول الله ﷺ.

ثانيها: أن هدية الزنجبيل من الروم إلى الحجاز شيء ينكره العقل فهو نظير هدية التمر من الروم إلى المدينة النبوية[3].

ورد قول من قال: إن سلمان الفارسي صاحب رسول الله ﷺ عُمِّر ثلاثمائة سنة، يقول معقباً على هذا القول: "ومجموع أمره وأحواله وغزوه وهمته وتصرفه وغرسه للجريد وأشياء مما تقدم تبيِّن بأنه ليس بمعمر ولا

---

(١) تاريخ الإسلام، السيرة النبوية، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت، ١٤٠٧هـ، ص:٥٧.

(٢) راجع: بشار عواد معروف: الذهبي ومنهجه في كتابه "تاريخ الإسلام"، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط١، القاهرة، ص:٤٥٦-٤٥٧.

(٣) ٣/٢٥٤.

هرم فقد فارق وطنه وهو حَدَث ولعله قدم الحجاز وله أربعون سنة أو أقل. فلعله عاش بضعاً وسبعين وما أراه بلغ المائة"[١].

وقد نظر الذهبي إلى الموضوعات على أنها عبء كبير على السيرة، وأخذ على القاضي عياض (ت:٥٤٤هـ) مؤلف كتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" ما في كتابه من أحاديث مفتعلة واهية، حيث قال عنه: "حشاه بالأحاديث المفتعلة، عمل لا نقد له في الحديث ولا ذوق، والله يثيبه على حسن قصده، وينفع بشفائه، وقد فعل، وكذا فيه من التأويلات البعيدة ألوان، ونبينا ﷺ غني بمدحه التنزيل عن الأحاديث، وبما تواتر من الأخبار عن الآحاد، وبالآحاد النظيفة الأسانيد عن الواهيات، فلماذا يا قوم التشبع بالموضوعات فيتطرّق إلينا مقال ذوي الغل والحسد ولكن من لا يعلم معذور"[٢]. ويرى الذهبي أن الموضوعات والأخبار الواهية لا يلتفت إليها بل تروى للتحذير منها: "فمن دلّسها أو غطى تبيانها فهو جانٍ على السنّة خائن لله ورسوله، فإن كان يجهل ذلك، فقد يعذر بالجهل ولكن سلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"[٣].

وقد عاصر ابن كثير كذلك، ابن القيم: محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي (٦٩١-٧٥١هـ).

---

(١) سير أعلام النبلاء، ج١، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت، ١٤١٤هـ، ص:٥٥٦.

(٢) سير أعلام النبلاء، ج٢٠، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم عرقوسي، ص:٢١٦، بيروت، ١٤١٧هـ.

(٣) سير أعلام النبلاء، ج٨، تحقيق شعيب الأرنؤوط ونذير حمدان، بيروت، ١٤١٧هـ، ص:٥٢٠.

ويعد ابن كثير من أقرانه وأصحابه، يقول عنه: "كنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه"[1]، وهذا القول يبين أن الشيخين إنما كانا صاحبين يلازمان أمثال ابن تيمية والمزي، لكن بعض المعاصرين يرى أن ابن كثير من تلاميذ ابن القيم[2]، وعلى كلٍ فثمة عناصر جمعت بين الرجلين، ثقافة ومنهجاً، بالإضافة إلى التلمذة، على شيخ الإسلام ابن تيمية وقد كان الشيخان ضمن بعثة العلماء إلى الحج سنة ٧٣١هـ[3].

ألف ابن القيم في السيرة كتابه المتميز "زاد المعاد في هدي خير العباد" ويعدُّ موسوعة جمعت بين علوم شتى من السيرة والفقه والتوحيد واللطائف في التفسير والحديث والفقه وغير ذلك.

ويرى بعض الباحثين أنه أول كتاب في فقه السيرة، تميز هذا الكتاب بالموضوعات التي طرقها والآفاق التي نقل قارئه إليها من خلال كتابه، والجوانب الجديدة التي تناولها[4]، وقد تميز كذلك بنقده لمتون كثيرة يرويها كُتَّابُ السيرة ورواتها.

فمن ذلك رواية يونس بن بكير عن سلمة بن عبد يسوع، أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طسّ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ

---

(١) البداية والنهاية، ج١٨، ص:٥٢٣، ويلاحظ أنه (ابن كثير) وصفه في الترجمة له بـ(صاحبنا الإمام).

(٢) بكر عبد الله أبو زيد: ابن قيم الجوزية حياته وآثاره، ص:١٠٨، وانظر الندوي، الإمام ابن كثير سيرته ومؤلفاته ومنهجه في كتابة التاريخ، دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٠هـ، ص:٥٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ص:٣٥٤.

(٤) فاروق حمادة: مصادر السيرة النبوية وتقويمها، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط١، ١٤٠١هـ، ص:١٠٨.

﴿ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[النمل:٣٠] يعني النمل، باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

قال ابن القيم: ذلك غلط على غلط فإن هذه السورة مكية باتفاق وكتابه إلى نجران بعد مرجعه من تبوك[1].

وردَّ رواية الترمذي أن رسول الله ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعبد الله ابن رواحة بين يديه ينشد (خلوا بني الكفار عن سبيله.. الأبيات..).

قال ابن القيم: هذا وهم، فإن ابن رواحة قتل في هذه الغزوة (مؤتة) وهي قبل الفتح بأربعة أشهر[2].

ويرد ابن القيم على رواية عرض أبي سفيان على رسول الله ﷺ الزواج من ابنته أم حبيبة ـ رضي الله عنها ـ قائلاً: "إن أهل التاريخ أجمعوا على أن رسول الله ﷺ تزوج أم حبيبة قبل إسلام والدها بزمن طويل"، ويرد على من ذهب إلى أن النبي ﷺ تزوج أم حبيبة بعد الفتح، فيقول: "هذا باطل عند من له أدنى علم بالسيرة وتواريخ ما قد كان"[3].

وثمة روايات أخرى حاكمها ابن القيم محاكمة نقدية كاشفاً ما فيها من تناقضات وأوهام كرواية البيهقي التي أسندها إلى محمد بن إسحاق، وفيها أن رسول الله ﷺ أبلغ حذيفة بالمنافقين الذين حاولوا المكر بالنبي

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، ٦٤٢/٣.

(٢)زاد المعاد، ٣٨٥/٣.

(٣) زاد المعاد، ١١٠/١.

ﷺ وهو عائد من تبوك، وفي الخبر قال: ادع عبد الله بن أبي وسعد أبي السرح، والروايات التي ذهبت إلى القول بأنَّ سَرِيَّة الخبط وأميرها أبو عبيدة بن الجراح إنما وقعت في رجب سنة ثمان للهجرة[١].

ابن كثير والسيرة النبوية

ليس ابن كثير فقيهاً مغموراً خامل الذكر، ولا هو ذاك المؤرخ غير المشهور الذي تجهل مكانته ولا تعرف مؤلفاته، ولا هو ممن يحيط به طوق الإهمال والنسيان، فنحن أمام عالم موسوعي جمع بين العديد من العلوم والفنون وذاعت بعض كتبه خاصة التفسير وكتاب "البداية والنهاية" بين المسلمين قديماً وحديثاً. كما كتب عنه عدد من الباحثين[٢]، مما يجعلنا نقتصدُ في الترجمة لهذا العلَم الموسوعي، والإمام المفسر المؤرخ.

(١) المصدر نفسه، ٣/٣٩٠.

(٢) ومنهم: إسماعيل سالم عبد العال: ابن كثير ومنهجه في التفسير، القاهرة.. ط٤، ١٩٨٤م، ص:٣٩-٨٤، مسعود الرحمن خان الندوي: الإمام ابن كثير سيرته ومؤلفاته ومنهجه في كتابة التاريخ، ص:١٣-٣٨، مصطفى عبد الواحد: مقدمة تحقيق السيرة النبوية لابن كثير، بيروت، دار المعرفة، ١٣٩٦هـ، ١/٣-١٢.

ولد إسماعيل بن عمر بن كثير سنة سبعمائة أو بعدها بيسير، وقد عانى من اليتم منذ صغره حيث توفي والده سنة (٧٠٣هـ)، نشأ بدمشق[١]، وتتلمذ على يد مجموعة من علمائها من أبرزهم:

ـ كمال الدين بن الزملكاني شيخ الشافعية بالشام (ت:٧٢٧هـ)[٢].

ـ إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري (ت:٧٢٩هـ)[٣].

ـ جمال الدين أبو الحجاج المزي (ت:٧٤٢هـ)[٤].

ـ ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت:٧٢٨هـ)[٥].

ورغم أن الغالب على الحياة العلمية والدراسات الدينية في بلاد الشام طابع التقليد ومحاكاة السابقين والعكوف على الشروح والمختصرات إلا أن تلك البلاد حظيت بوجود مدرسة حديثية جمعت بين الاتباع السلفي والعلم الراسخ والعقلية النقدية، مثلها شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام المزي العالم المحدث ثم الذهبي وابن القيم وابن كثير نفسه، فتكوَّن رحمه الله في ظل هذه المدرسة التي أثرت في تكوينه العلمي واتجاهات البحث عنده.

---

(١) البداية والنهاية، ٤٢/١٨، ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ٣٩٩/١-٤٠٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٣٠٨/٩.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٣١٦/٨.

(٤) ابن كثير: المصدر نفسه، ٤٢٧/١٨، وشمس الدين الداودي: طبقات المفسرين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ ١١٢/١.

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة ٣٩٩/١-٤٠٠.

لازم ابن كثير والد زوجته الحافظ المزي[1] صاحب ابن تيمية والمحدث المشهور.

كما أخذ عن شيخه ابن تيمية وكانت له به خصوصية ومناضلة عنه واتباع له في كثير من آرائه[2]، وفي كتابه "البداية والنهاية" يبدو ابن كثير معجباً بشيخه مسجلاً لكثير من مواقفه السياسية في حرب المغول، وكذلك مواقفه في المسائل الدينية وخصوماته الحادة بين المخالفين[3]، ويذكر ابن قاضي شهبة (٨٥٤هـ) أن ابن كثير كان يفتي برأي ابن تيمية في مسائل الطلاق وامتحن بسبب ذلك وأوذي[4].

يُعَدُّ ابن كثير من فقهاء المذهب الشافعي، وكذلك شيخاه المزي والذهبي بخلاف صاحبه ابن القيم (كما يصفه بذلك)[5].

وقد التفوا حول علاَّمة السنة في وقته (ابن تيمية ٦٦١-٧٢٨هـ) مما أزعج المذهبيين المتمسكين بالمذهب على حساب السنة والأثر، يتجلى

---

(١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ١/٣٩٩-٤٠٠، ابن كثير: البداية والنهاية ٤٢٨/١٨.

(٢) أبو بكر بن شهبة (٨٥١هـ): طبقات الشافعية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ، ٢٣٨/٢.

(٣) البداية والنهاية، ٢٣/١٨-٢٦/٥١-٥٣-٦٤-٩٥- مثلاً.

(٤) ابن شهبة: طبقات الشافعية، ١٣٨/٢.

(٥) البداية والنهاية، ١٨-٥٢٣.

ذلك في قول الشيخ عبد الوهاب السبكي (ت:٦٨٣هـ) صاحب طبقات الشافعية: إن المزي والذهبي وكثيراً من أتباعهم أضرَّ بهم ابن تيمية[١].

إن الخيط الذي جمع بين ابن تيمية وابن القيم الحنبليين والمزي والذهبي وابن كثير الشافعيين، ليس العامل الإقليمي، بل ارتباطهم بمدرسة الحديث والأثر التي ترى أن مصدر العقائد والأحكام هو الكتاب والسنة، وهذه المدرسة هي التي منحت الذهبي وابن كثير تلك المنزلة والمكانة بين المؤلفين في السيرة والتاريخ، فرأينا تميزاً نوعياً في التأليف ومعالجات نقدية للروايات والآراء.

مارس ابن كثير التدريس في الجامع الأموي بدمشق وفي المدرسة النورية وفي عدة مساجد في دمشق وتولى مشيخة دار الحديث الأشرفية كما مارس الإفتاء والخطابة[٢]، هذا إلى جانب النشاط التأليفي الذي يعدُّ الظاهرة الأهم في حياة ابن كثير، حيث ألف وجمع العديد من المصنفات التي يذكر بعض الباحثين أنها تربو على (٦٠) كتاباً[٣]. ومع كثرة مصنفاته إلا أن ما ناله من شهرة ومكانة إنما يرجع إلى كتابيه: "تفسير

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود محمد الطناحي، القاهرة، ١٣٨٥هـ، ١٠/٤٠٠.

(٢) البداية والنهاية، ١٨/٦٩٩،٧١٩، ٧٥٩ الداودي: طبقات المفسرين، ١/١١٢.

(٣) إسماعيل سالم عبد العال: ابن كثير ومنهجه في التفسير، ص:١٢٣.

القرآن العظيم" و"البداية والنهاية". وبعد حياة حافلة بالعطاء والإنتـــاج توفي ابن كثير في موطنه دمشق عام (٧٧٤هـ)[١].

(١) ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحـــق، القاهرة، ج١، ص:٣٩٩-٤٠٠.



السيرة النبوية عند ابن كثير

تعد السيرة النبوية من الفنون الأساسية التي لا يستغني عن دراستها عالم أو فقيه، وفي نظر ابن كثير فإن الأيام النبوية مشتملة على علوم جمة، وفائدة مهمة، لا يستغني عنها عالم[1].

وما ذاك إلا لأن موضوع السيرة الجوهري هو تاريخ حياة النبي ﷺ ومعرفة مراحل دعوته وجهاده، وتعاليمه وهديه، ومعلوم أن الفقيه أو العالم يتعامل مع النصوص والأحكام التشريعية التي جاء بها محمد بن عبد الله ﷺ، ومن مهامه ووظائفه، فهم الشريعة، وشرحها للناس، وإنزال الأحكام الشرعية على الوقائع المتجددة والمتغيرة، ومن الوسائل والأدوات المعينة على ذلك، فهم السيرة وواقعها التاريخي ومراحلها التي تزامنت مع نزول الأحكام والتشريعات.

فإذن لا غرابة أن يؤلف ابن كثير في السيرة النبوية، السيرة المطولة في "البداية والنهاية" والسيرة الموجزة وهي كتاب "الفصول في سيرة الرسول ﷺ".

ومسألة أخرى حدت بابن كثير إلى الاهتمام بالسيرة والتوسع فيها وتقصي رواياها في كتابه الضخم "البداية والنهاية" فالمؤلف يرى في

(١) الفصول في سيرة الرسول ﷺ، تحقيق محمد الخطراوي، ومحيي الدين مستو، دمشق، دار الكلم الطيب، ط٩، ١٤٢٠هـ، ص:٧٩.

تاريخ السيرة واسطة عقد تاريخ الأمة المؤمنة التي يبدأ تاريخها منذ عهد آدم عليه السلام.

يضم كتاب ابن كثير "البداية والنهاية" سيرة مطولة، تضم السيرة بسياقها التاريخي المعروف ثم الشمائل والدلائل والفضائل والخصائص.

وقبل أن نبدأ في استعراض أهم عناصر هذه السيرة لا بد من الإشارة إلى أن "البداية والنهاية" هو عبارة عن موسوعة تاريخية شاملة تؤرخ لبدايات الخلق، ثم الأنبياء، ثم السيرة التي استغرقت نحواً من ستة أجزاء من الكتاب حسب طبعة مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر[1]، التي تضم (٢١) جزءاً بما فيها جزء الفهارس والجزآن (١٩، ٢٠) وقد خُصِّصَا "للفتن والملاحم وأشراط الساعة".

وقد جاء الكتاب ثمرة عوامل أثرت في مكوناته واتجاهه الموسوعي وطابعه العام ومنهجه التاريخي والنقدي. ومن تلك العوامل:

---

(١) وهذه الطبعة هي التي سوف نعتمد عليها في دراستنا هذه وقد حققها عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ، وفي تقدير الباحث فإن هذه الطبعة قد عنيت بالكتاب خاصة قسم السيرة تحقيقاً وتخريجاً على نحو لم يتوافر في سابقاتها، ومن طبعات الكتاب السابقة طبعة دار السعادة بالقاهرة، ١٣٤٨هـ، في (١٤) جزءاً، كما ظهرت طبعات أخرى للكتاب في بيروت، ومنها طبعة دار المعرفة بتحقيق، عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي بيضون، ط١، ١٤١٦هـ، وطبعة المكتبة العصرية، بتحقيق عبد الحميد هنداوي، ط١، ١٤٢١هـ، للمزيد انظر: طبعات كتاب البداية والنهاية، في مقدمة تحقيق البداية والنهاية بدار هجر، ص:٣٤-٣٩.

ـــ سعة اطلاع مؤلفه (ابن كثير) على كثير من المصـــادر، ومنـــها دواوين السنة وكتب السير والمغازي وكتب الدلائل وكتـــب التـــاريخ العام.

ـــ تأثر ابن كثير بمنهج مؤرخي الإسلام الذين كتبوا في التاريخ العام كابن جرير وابن الأثير وابن الجوزي.

ـــ انتماؤه إلى عصر ساد فيه النمط الموسوعي في التأليف.

ـــ إيمان ابن كثير بوحدة الأمة الإسلامية وإدراكه لأثـــر الرســـالة المحمدية في الحركة التاريخية لهذه الأمة.

ـــ انتماء المؤلف إلى مدرسة الحديث والأثر، حيث يتضح أثر خلفية المؤلف في الحديث وعلومه في جانب من أقسام الكتاب ومنها الســـيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين، وتراجم العلماء والأئمـــة وآرائـــه في الرجال والآراء والمذاهب.

افتتح ابن كثير، قسم السيرة في البداية والنهاية بهذا العنوان: "كتاب سيرة الرسول ﷺ وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليـــه، وشمائلـــه وفضائله ودلائله الدالة عليه"[1].

فبدأ بالنسب النبوي، وقد سرد ابن كثير مروياته ومقتبســـاته مـــن مصادره المختلفة وفق نظام عرض تاريخي متدرج فانتقل مـــن المولـــد ومتعلقاته إلى المبعث الذي عنون له هكذا:

---

(١) ٣/٣٥٣.

(كتاب مبعث رسول الله ﷺ وذكر شيء من البشارات بذلك)[١]، ومما تناوله هنا أبواب بدء الوحي ومجادلة المشركين لرسول الله ﷺ[٢]، وهجرة من هاجر من أصحاب النبي ﷺ إلى الحبشة[٣]، كما تناول بدء إسلام الأنصار[٤] ثم الهجرة من مكة إلى المدينة[٥] ووقائع السنة الأولى الهجرية[٦].

وبعد ذلك انتقل إلى كتاب المغازي[٧] في الأجزاء (٥، ٦، ٧) وتلا ذلك كتاب الوفود[٨]، ثم كتاب حجة الوداع[٩]، وأخيراً تناول الآيات المنذرة بوفاة النبي ﷺ[١٠]، واحتضاره ووفاته عليه الصلاة والسلام، وأعقب ذلك أبواباً في زوجات النبي ﷺ[١١]، وخدامه وكتابه[١٢]، وأبواباً في آثار النبي ﷺ وما اختص به من ثياب وسلاح[١٣]، وهكذا سار ابن

---

(١) ٣/٤٩٥.

(٢) ٤/٥.

(٣) ٤/١٦٥.

(٤) ٤/٣٧١.

(٥) ٤/٤٤٣.

(٦) ٤/٥١٠.

(٧) ٥/٥.

(٨) ٧/٢٣٢.

(٩) ٧/٤٠٤.

(١٠) ٨/٦١.

(١١) ٨/٢٠١.

(١٢) ٨/٣٠١-٣٢١.

(١٣) ٨/٣٦١.

كثير في ترتيبه للموضوعات التاريخية من السيرة إلى نمط من سبقه كابن إسحاق والواقدي والطبري وابن الأثير، واستفاد من البيهقي في تنظيم الأبواب[١]، علاوة على استفادته من مواده ونصوصه.

وفي الوقت الذي حافظ فيه على الوحدة الموضوعية لكل حادثة فإنه يُذَكِّر بالسنة التي تندرج فيها الأحداث التي يسوقها، وذلك في الأحداث التي وقعت بعد الهجرة[٢].

وبعد أن استعرض الموضوعات التاريخية والجوانب الأسرية في حياة النبي ﷺ تناول ابن كثير ما سماه بـ(متعلقات السيرة) وهي في مفهومه (الشمائل، والدلائل، والفضائل، والخصائص)[٣]، ثم ساق رواياتها وأبوابها.

وقد أشار في مفتتح كتاب الشمائل إلى أنَّ أهمَّ المصادر المصنفة في هذا الجانب، كتاب الشمائل للترمذي[٤]، وعندما تناول الدلائل قسمها إلى دلائل معنوية ودلائل حسية.

فأما الدلائل المعنوية:

فتتمثل في القرآن الكريم[٥]، وأخلاق النبي ﷺ وخلقه[٦].

---

(١) البيهقي: دلائل النبوة، ٢/٥٦، ابن كثير، البداية والنهاية ٣/٤٦٦، مثلاً.

(٢) انظر مثلاً: ٦/٤٩٥.

(٣) ٨/٥٣٤.

(٤) ٨/٣٨٥.

(٥) ٨/٥٣٩.

(٦) ٨/٥٤٩.

وهنا أحال على ما ذكره ابن تيمية في الجواب الصحيح من أن سيرة النبي ﷺ وأخلاقه وأقواله وأفعاله من آياته أي من دلائل نبوته، ونقل منه ثمان صفحات حول هذا الموضوع[١].

ثم انتقل إلى دلائل النبوة الحسية وقد قسمها إلى قسمين سماوية وأرضية، فمن الدلائل السماوية وأعظمها انشقاق القمر فرقتين[٢].

كذلك ذكر من آياته السماوية استسقاءه عليه الصلاة والسلام ربه لأمته[٣]، ثم تناول الدلائل الأرضية سواءً ما يتعلق بالجمادات أو الحيوانات[٤].

ثم تناول ابن كثير ما أخبر به ﷺ من الكائنات المستقبلة في حياته وبعده فوقعت طبق ما أخبر به سواءً بسواء[٥]، وقد أورد أولاً ما جاء من هذا القبيل في القرآن، ثم انتقل إلى الأحاديث والآثار، ثم تناول الأخبار بالغيوب المستقبلة مورداً أخباراً كثيرة أيضاً تندرج تحت هذا الموضوع، ثم عقد ابن كثير باباً طويلاً عنوانه:

---

(١) ٨/٥٤٩-٥٥٧.

(٢) ٨/٥٥٨.

(٣) ٨/٥٨٩.

(٤) ٨/٦٠٤.

(٥) ٩/١٤٤.

(التنبيه على ذكر معجزات لرسول الله ﷺ مماثلة لمعجزات جماعة من الأنبياء قبله أو أعلى منها خارجاً عما اختص به من المعجزات العظيمة التي لم تكن لأحدٍ قبله منهم عليهم السلام).

ويقوم هذا الكتاب على الموازنة بين معجزات الأنبياء السابقين ومعجزات محمد ﷺ ويعكس ذلك تأثره بكُتّاب الدلائل النبوية كأبي نعيم الأصبهاني(١) وابن حامد: أبي محمد عبد الله بن حامد الفقيه صاحب كتاب "دلائل النبوة"(٢).

وأخيراً يختم ابن كثير سيرته بقصيدة لجمال الدين يحيى بن زكريا الصرصري (ت:٦٥٦هـ) في الموازنة(٣) بين معجزات الأنبياء السابقين ومعجزات محمد ﷺ.

وفي ثنايا سيرة ابن كثير تلك ثمة مظاهر تكشف لنا عن طبيعة هذه السيرة وسماتها العامة ومن ذلك جمع الروايات من مصادر مختلفة وتقصي ما ورد في كل موضوع من موضوعات السيرة، وشمولية هيكل السيرة عنده، وعدم اقتصاره على الموضوعات التي شكلت الهيكل الأساس للسيرة عند كُتّاب السير الأوائل.

---

(١) انظر: دلائل النبوة: لأبي نعيم الأصبهاني، فصل ذكر موازاة الأنبياء في فضائلهم بفضائل نبينا ومقابلة ما أوتوا من الآيات، ج٢، ص:٥٨٧،وابن كثير: البداية والنهاية (باب التنبيه على ذكر معجزات لرسول الله ﷺ مماثلة لمعجزات جماعة من الأنبياء قبله) ٣٠٥/٩.

(٢) يصفه ابن كثير بأنه كتاب جليل حافل مشتمل على فوائد نفيسة اقتبس منه ابن كثير في أبواب الدلائل في عدة مواضع منها على سبيل المثال: ٢٠/٩-٣٠٩-٣٢١-٣٣٨-٣٤٠-٣٥٥.

(٣) ٤١١/٩.

كما يظهر في سيرة ابن كثير نقد الأسانيد والمتون كأحد المظاهر المميزة لهذه السيرة (وسوف نتناول ذلك لاحقاً).

لا يقتصر التأليف في السيرة عن ابن كثير على السيرة في "البداية والنهاية"، فهناك كتاب "الفصول في سيرة الرسول ﷺ" وهو كتاب مختصر موجز قياساً إلى السيرة الواردة في "البداية والنهاية"، وقد صنفه لشعوره بحاجة أهل العلم لمعرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية، كما يبدو أن هذه السيرة جزءٌ من مشروع لعرض التاريخ الإسلامي بصورة موجزة، هذا ما يبدو لنا من قول ابن كثير: إنه لا يجمل بأولي العلم إهمال معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية وهي مشتملة على علوم جمة وفوائد مهمة لا يستغني عنها عال ولا يعذر في العُزُوِّ منها، وقد أحببت أن أعلق تذكرة في ذلك لتكون مدخلاً إليه وأنموذجاً وعوناً له وعليه، وهي مشتملة على ذكر نسب رسول الله ﷺ، وسيرته وأعلامه، وذِكر أعلام الإسلام بعده إلى يومنا هذا[1].

لقد طبعت هذه السيرة في القاهرة سنة ١٣٥٧هـ تحت عنوان (الفصول في اختصار سيرة الرسول) دون تحقيق، ثم طبع الكتاب بتحقيق الدكتور محمد العيد الخطراوي، ومحيي الدين مستو، بيروت، ١٣٩٩هـ، ثم توالت طبعات هذا الكتاب.

---

(١) الفصول في سيرة الرسول، ص: ٧٩-٨٠.

وأخرج عدد من الباحثين موضوعات الأنبياء بما فيها الشمائل من "البداية والنهاية" في كتب مستقلة.

فقد عمد مصطفى عبد الواحد إلى "البداية والنهاية" وحقق قسم السيرة في أربعة أجزاء، ويذكر أنه اتجه إلى نشر السيرة النبوية لابن كثير، وهي ذلك القسم الذي أفرده ابن كثير لأخبار العرب في الجاهلية، وسيرة النبي ﷺ، وتاريخ دعوته حتى وفاته. على اعتبار أن هذا القسم هو السيرة النبوية (المطولة) التي أشار إليها ابن كثير في تفسيره[1].

وفي رأي (إسماعيل عبد العال) فإن هذا الكتاب المحقق ليس هو الذي أفرده ابن كثير في السيرة، وعبارته واضحة حين قال: (أفردناه موجزاً وبسيطاً، وإذا كان الموجز منهما مستقلاً عن "البداية والنهاية" فإن البسيط يكون كذلك)[2].

ونميل إلى القول بأن كتاب ابن كثير المفرد في السيرة والذي من سماته الإيجاز والتبسيط كما يقول ابن كثير[3] هو "الفصول في سيرة الرسول" ولعل مما يقوي ذلك أنه أورد في بعض طبعات التفسير المحققة قول ابن كثير: (الذي أفردناه موجزاً ومقتصاً)[4]، والإيجاز والاقتصاص إنما ينطبقان فقط على كتاب الفصول وقد راجعت ثلاث طبعات

(١) مقدمة تحقيق السيرة النبوية لابن كثير، ص:١٢-١٣.

(٢) ابن كثير ومنهجه في التفسير، ص:٥٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، القاهرة، دار الحديث، ١٤١٥هـ، جزء ٣، ص:٤٦٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي محمد السلامة، الرياض، دار طيبة، ١٤٢٠هـ، ٣٩٨/٦.

للتفسير[1] إلا أنها لم تورد عبارة مطولة في وصف كتابه المفرد في السيرة وفي ثنايا كتاب "البداية والنهاية" وعندما يحيل ابن كثير إلى السيرة فمرادُه ذلك القسم من "البداية والنهاية"، ومن صور إحالاته عليه قوله: (كما سيأتي في بيان ذلك في السيرة) و(كما ذكرنا في السيرة وذكرنا بأسانيده في أول السيرة) و(تقدم بسطه وبيانه في أول السيرة)[2].

كذلك نرجح أن يكون كتاب السيرة الذي خضع للإيجاز والاقتصاص هو كتاب السيرة الوارد في "البداية والنهاية" المتسم بطوله وجامعيته وشموله لجوانب السيرة كافة والمستوعب للروايات والآراء في مجال السيرة الجامع بين هيكل السيرة التاريخي وهيكلها عند كُتَّاب الشمائل والدلائل.

كذلك أخرج مصطفى عبد الواحد شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه في كتاب مستقل[3]، وكذلك فعل عبد القادر الأرناؤوط[4]، وهناك باحثون ومحققون آخرون[5]، أخرجوا أقساماً من

---

(١) بالإضافة إلى الطبعتين المشار إليهما في الهامشين السابقين، طبعة بتحقيق محمد أنس الخن، بيروت، ١٤٢١هـ، مؤسسة الرسالة، ص:١٠٥٣.

(٢) ٢٩٨/٣، ٣٢٩/٩-٣٨٥-٤٠٥.

(٣) طبع في القاهرة، ١٩٦٧م.

(٤) طبع في الرياض نشرته مكتبة العبيكان، ط١، ١٤٢٢هـ.

(٥) من هؤلاء: كنعان: محمد بن أحمد: السيرة النبوية والمعجزات والمغازي النبوية، بيروت، مؤسسة المعارف، ١٤١٧هـ، الهلاوي: محمد عبد العزيز: معجزات النبي للحافظ ابن كثير، القاهرة، ١٤١٩هـ، عبد الشافي: أحمد: السيرة النبوية، بيروت، دار الكتب العلمية (د،ت) هذا بالإضافة إلى مستخرجات أخرى من كتاب البداية والنهاية.

السيرة والمعجزات من "البداية والنهاية" وتلك المستخرجات وغيرها تتفاوت في مدى عنايتها بالأخبار والروايات التي يوردها ابن كثير وفي مدى وفائها بمتطلبات المنهج العلمي المتبع في أعمال التحقيق ومدى تمكن أولئك المحققين من تجاوز المرحلة الأولية المطلوبة في التحقيق أي: تجاوز مجرد وضع المقدمات والفهارس العامة.

مراجعات ابن كثير ونقده:

يسير ابن كثير في سيرته على منهج جامعي الروايات من مختلف الموارد، أولئك الذين يروون في تصانيفهم جميع ما يروى في هذا الباب أو الموضوع.

وعند تشخيص أصول روايات ابن كثير نجد أنها تنتمي إلى مجموعة من المصادر المتنوعة فمنها مصادر عرفت بمنهجيتها الدقيقة وتمحيصها للروايات كالصحيحين للبخاري ومسلم، وفيها مصادر لا تخلو من روايات ضعيفة وأحاديث. قال بعض العلماء بوضعها كالمسند للإمام أحمد وهو من أهم مصادر ابن كثير[1]، وهناك مصادر من كتب الدلائل[2] حملت روايات موضوعة واهية، ومثلها كتب الهواتف[1] وكتب الفتن[2] والملاحم.

---

(١) انظر: مصطفى عبد الواحد، مقدمة تحقيق السيرة النبوية، ١/١٤.

(٢) من أبرزها دلائل النبوة للبيهقي، انظر: ٣/٢٨٢-٣٠١ مثلاً، وانظر كذلك فهارس البداية والنهاية، ص:٧٣٧-٧٣٨-١٢٤٤.

أضف إلى ذلك كتب المغازي والسير وفيها المراسيل والمنقطعات وفيها ما ورد بدون إسناد، وبين ما جمعه ابن كثير آراء وأقوال لبعض كتاب السيرة والدلائل وغيرهم، وإزاء هذه الروايات والنقول كان لا بد أن يُعنى ابن كثير بنقدها سنداً ومتناً. ومجال دراستنا تلك إنما هو نقد المتن عند ابن كثير مع أن نقد الإسناد ودراسته وهو النقد الخارجي ليس مقطوع الصلة بالنقد الداخلي "نقد المتن" فاشتراط ضبط الراوي إنما يراد به صيانة متن الحديث، والوقوف على المتن ومعرفة سلامته أو نكارته سبيل للتحقق من ضبط الراوي[٣]، ودارسو الأسانيد ركزوا على قضايا في شخصياتهم لها أثر فيما يروون، فتناولوا مسألة ضبط الراوي ويقظته، ورسوخ ما حفظ في ذاكرته، ونظروا إلى مجموعة من الاعتبارات الموضوعية، لا مجرد هيئة الراوي وعبادته، ومن تلك الاعتبارات الخصائص الذهنية التي أشرنا إليها ومدى دقة الراوي وأهليته لحمل الرواية وكذلك اتجاهاته السياسية والفكرية. ولعل مما يعبر عن ذلك ما ورد عن الإمام مالك بن أنس وهو قوله: "لا يؤخذ العلم عن أربعة، ومنهم رجل له فضل وصلاح وعبادةٌ لا يعرف ما يحدث"، وروي عنه قوله: "أدركت عند هذه الأساطين سبعين (وأشار إلى مسجد رسول الله ﷺ) كلهم يقولون: قال رسول الله ﷺ. فما أخذت عنهم شيئاً وإن

=

(١) مثل كتاب "هواتف الجان" لأبي بكر الخرائطي، البداية والنهاية ٥٧٠/٣.

(٢) ومنها كتاب نعيم بن حماد الخزاعي: الفتن والملاحم، (١٧٢/٩–١٨٤–٢١٠).

(٣) عصام البشير: أصول منهج النقد عند أهل الحديث، مؤسسة الريان، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ، ص:٨٩.

أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أميناً إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن"[1].

لقد أخضع ابن كثير قدراً من رواياته في أبواب السيرة للمراجعة والنظر ومن جوانب تلك المراجعات شرح وتوضيح ما يحتاج إلى توضيح والتعقيب على ما يحتاج إلى تعقيب وشرح الألفاظ الغريبة في المتن. ومن ذلك على سبيل المثال ما ورد في رواية ابن إسحاق أن النبي ﷺ قال: (من يقضي عني ديني ويكون خليفتي في أهلي) قال ابن كثير مفسراً وشارحاً لذلك القول: يعني إذا مت وكأنه خشي إذا قام بإبلاغ الرسالة إلى مشركي العرب أن يقتلوه[2].

كذلك وضح ابن كثير معاني بعض الألفاظ الواردة في باب كيف بدأ الوحي[3]، وشرح غريب حديث أم معبد في صفة النبي ﷺ[4].

وفسر ما ذهب إليه ابن إسحاق من أن عدد المسلمين في الحديبية (٧٠٠)[5] ــ مخالفاً بذلك الروايات الصحيحة ــ حيث أرجع ابن كثير ذلك إلى أن ابن إسحاق تبنى ذلك الرأي اعتماداً على أن عدد البدن (٧٠) وكل منها عن عشرة على اختياره، وعقب على ذلك بالقول أنه

---

(١) الخطيب البغدادي (ت:٤٦٣هـ): الكفاية في علم الرواية، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ، ص:١٩١-١٩٢.

(٢) ١٠٣/٤.

(٣) ١٣/٤-١٤-١٩.

(٤) ٤٤٣/٨-٤٤٥.

(٥) ابن هشام: سيرة النبي ﷺ ٣٥٦/٣.

لا يلزم أن يكون كل من حضر الحديبية قد اهدى، وأنهم جميعاً كانوا محرمين[1].

إن مفهوم المراجعة يشمل صوراً عدة: منها الشرح وتوضيح النص وتفسير اللفظ الغريب وغير ذلك من الصور، لكن أهم صور المراجعات ما يتصل بنقد مضمون المتن[2] ومحتواه فهو جهد دال على عقلية الناقد وتميزه واستيعابه لعلوم كثيرة وتجاوزه لدور الناقل الذي تغيب شخصيته وراء الأسانيد والمتون حيث راجع ابن كثير متون مرويات كثيرة مُبْدِياً ملحوظاته عليها.

ومن ذلك على سبيل مراجعة رواية ابن جرير في إسلام سعد بن أبي وقاص وفيها: أن محمد بن سعد بن أبي وقاص سأل والده: أكان أبو بكر أولكم إسلاماً؟ قال: لا، ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين[3].

وما ورد في تفسير قول عمرو بن عبسة السُلمي لقد رأيتني وأنا رُبع الإسلام وإنه سأل النبي ﷺ من معك على هذا؟ فقال: حر، وعبد، حيث فسر بعض الرواة قوله حر وعبد بأبي بكر وبلال رضي الله عنهما وهو تفسير فيه نظر (عند ابن كثير) فقد أسلم جماعة قبل عمرو بن عبسة،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ٦/٢٢٤.

(٢) المتن: هو غاية ما ينتهي إليه السند من الكلام وهو النص المروي، راجع السيوطي: جلال الدين السيوطي (ت:٩١١هـ): تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق: عزت علي عطية وموسى محمد علي، القاهرة، دار الكتاب الحديث، (د،ت) ١/٤٤.

(٣) قال ابن كثير عنه: منكر إسناداً ومتناً، ٤/٧٢.

كذلك راجع ابن كثير قول عمرو بن عبسة كما في الرواية (لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام) وذكر أن المسلمين كانوا آنذاك يستسرون لا يطلع على أمرهم كثير أحد من قراباتهم دع الأجانب، دع أهل البادية الأعراب[1]. والله أعلم.

ومن الروايات التي راجعها ابن كثير ونقدها رواية ابن إسحاق في هجرة أبي موسى الأشعري[2] ﷺ، وخبر المؤاخاة بين النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب[3]. والمؤاخاة بين جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل[4]، وكون غزوة ذات الرقاع قبل الخندق عند بعض كتاب المغازي والسير[5]، وما ورد أن النبي ﷺ قرن في حجة الوداع خشية أن يُصَدّ عن البيت، وأن النبي ﷺ حج وأصحابه مشاةً من المدينة إلى مكة قد ربطوا أوساطهم[6] ومشيهم خليط من الهرولة ورواية أسماء بنت عميس في رد الشمس لعلي بن أبي طالب[7] رضي الله عنه.

---

(١) ٤/٧٩-٨٠.

(٢)٤/١٧٢-١٧٤.

(٣) ٤/٥٦٢.

(٤) ٤/٥٥٩-٥٦٠.

(٥) ٥/٥٥٧.

(٦) ٧/٤١٩-٤٢٠.

(٧) ٨/٥٦٦-٥٧٠.

وانتقد روايات وأقوالاً أوردها بعض كُتاب المغازي والسير مثل خبر تأخر هجرة سعد بن أبي وقاص إلى المدينة عند موسى بن عقبة[1] وخبر عروة في أن عثمان هو الذي زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان من النبي ﷺ، وهو خبر غريب ـ في رأي ابن كثير ـ لأن عثمان كان قد رجع إلى مكة قبل ذلك ثم هاجر إلى المدينة وصحبته زوجته رقية بنت محمد ﷺ[2].

كذلك صحح ما ذهب إليه محمد بن إسحاق من أنّ سورة الضحى أول السور نزولاً بعد فتور الوحي للمرة الأولى وذكر أن الصواب سورة المدثر وإنما نزلت سورة الضحى بعد فترة أخرى[3].

وصَوَّب ابن كثير ما ذكره ابن إسحاق من أنّ هرقل اسم للملك عند الروم فذكر أنّ اسم الملك عندهم قيصر[4]، كذلك رد قول من زعم أن عمر بن الخطاب عندما أسلم كان تمام الأربعين من المسلمين حيث سبقه المهاجرون إلى الحبشة وكانوا فوق الثمانين[5]، وصوب وناقش آراء مجموعة من كتاب السيرة النبوية مثل ابن هشام (ت:٢١٨هـ)[6]، وأبي

(١) ٤/٤٣١-٤٣٢.

(٢) ٦/١٤٥.

(٣) ٤/٤١، ويعني فتور الوحي هنا انقطاعه عن رسول الله ﷺ.

(٤) ٤/١٩٢، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن ابن كثير أخطأ عندما ذكر أن بطليموس علمٌ على من يملك الهند (٦/٣٣٩).

(٥) ٤/١٩٧.

(٦) ٦/٣٧٧.

نعـــيم (ت:٤٣٠هـ)[١]، والبيهقـــي (ت٤٥٨هـ)[٢]، والســـهيلي (ت٥٨١هـ)[٣]، والقاضي عياض (ت:٥٤٤هـ)[٤].

هذا إلى جانب عدد كبير من الرواة والمحدثين والمؤرخين وقد لفـت نظره انسياق بعضهم إلى جمع الروايات دون تمييـز بـين صـحيحها وسقيمها وخصّ بذلك أبا جعفر الطبري (ت:٣١٠هـ)[٥]، وابن عساكر: علي بن الحسن بن هبة الله (ت:٥٧١هـ)، يقول عن الأخير: "العجب من الحافظ ابن عساكر مع جلالة قدره واطلاعه على صِناعة الحديث أكثـر من غيره من أبناء عصره بل ومن تقدمه كيف يورد هذا وأحاديث كثيرة من هذا النمط ثم لا يبين حالها ولا يشير إلى شيء من ذلك إشـارة لا ظاهرة ولا خفية"[٦].

لم تقتصر تعقيبات ابن كثير ومراجعاته على ما يرويه كتاب السيرة والمغازي وما يذكره المؤلفون والمصنفون في هذين الفنين، بـل انتقـد وراجع متوناً وردت في مصنفات حديثية ومنـها نصـوص وردت في

(١) ٩/٣٣٨-٣٣٩.

(٢) ٦/١٦٢.

(٣) ٥/٣٣٧.

(٤) ٨/٣٨٣.

(٥) ٧/٦٦٦.

(٦) ٨/٣٥٦.

البخاري ومسلم أو أحدهما، كرواية شريك بن عبد الله في الإسراء[1]، وما رواه مسلم من حديث المعتمر بن سليمان عن أبيه أن المسلمين كانوا يوم هوازن (حنين) ستة آلاف، وإنما كانوا اثني عشر ألفاً[2]، ورواية أبي هريرة في بدء الخلق[3] والتي أخرجها مسلم[4] وغيره، وهي رواية يرى بعض الأئمة أنها متلقاة عن كعب الأحبار ومما يقدح فيها أنه ليس فيها ذكر خلق السموات وفيها ذكر خلق الأرض وما فيها في سبعة أيام وهذا خلاف ما جاء في القرآن؛ لأن الأرض خلقت في أربعة أيام ثم خلقت السموات في يومين[5].

تأتي مراجعات ابن كثير لمتون هذه الروايات وغيرها تجسيداً لمقولة: صحة السند ليست موجبة لصحة الحديث، يقول ابن كثير نفسه: (والحكم بالصحة أو الحسن على الإسناد لا يلزم منه الحكم بذلك على المتن؛ إذ قد يكون شاذاً أو معللاً)[6]، وفي تعقيبه على إحدى الروايات

---

(١) ٤/٢٧٥، وشريك بن عبد الله بن أبي نمر تابعي صدوق، قال ابن معين: لا بأس به، ووهاه ابن حزم لأجل حديث في الإسراء، الذهبي: ميزان الاعتدال، ٢/٢٦٩-٢٧٠.

(٢) ٧/٩٠-٩١، راجع مسلم. الجامع الصحيح، المكتبة الإسلامية، تركيا (د،ت)، ٢/٧٣٦، حديث رقم (١٠٥٩) وهناك رواية أخرى عن مسلم تناقض رواية المعتمر بن سليمان عن أبيه عن السميط عن أنس وفيها أنهم كانوا عشرة آلاف ومعهم الطلقاء، مسلم، الجامع الصحيح ٢/٧٣٦، كتاب الزكاة.

(٣) ١/٣٢.

(٤) مسلم الجامع الصحيح، ٤/٢١٤٩، كتاب صفات المنافقين رقم الحديث (٢٧٨٩).

(٥) ١/٣٣، وراجع: ابن تيمية: مجموع الفتاوي ٨/١٨-١٩.

(٦) الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث، الرياض، دار الهدى (د،ت)، ص:١٧.

يذكر أن (هذا الإسناد جيد قوي، لكن فيه نكارة من جهة قول الراوي)[1].

ولا شك أن مكانة الصحيحين عظيمة، مما جعل ابن كثير ــ رحمه الله ــ يحاول توجيه بعض المآخذ على بعض الروايات التي أشكلت على العلماء وهي قليلة في الصحيحين، ومن ذلك: متن حديث شريك بن عبد الله بن أبي نمر عن أنس في الإسراء برسول الله ﷺ والعروج به.

فعند قوله:

"إنه جاءه ثلاثة نفر وذلك قبل أن يوحى إليه"، وظاهر هذا الكلام يخالف ما عرف من أن الإسراء بعد البعثة النبوية. قال ابن كثير معلقاً على ذلك: (الجواب أن مجيئهم أول مرة، كان قبل أن يوحى إليه فكانت تلك الليلة ولم يكن فيها شيء ثم جاءته الملائكة ليلة أخرى بعدما أوحي إليه فكان الإسراء قطعاً بعد الإيحاء"[2].

وفي قوله: (ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى) يذكر أنَّ ذلك من فهم الراوي وقد أقحمه في الرواية[3].

---

(١) ٢٢٦/٧.

(٢) ٢٧٥/٤، انظر مسلم: الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب الإسراء١/١٨١.

(٣) ٢٧٨/٤.

وفي قوله رواية عن النبي ﷺ : (ثم استيقظت فإذا أنا في الحجر) قال ابن كثير: إن ذلك معدود في غلطات شريك أو محمول على أن الانتقال من حال إلى حال يسمى يقظة كما سيأتي في حديث عائشة[1].

ومن ذلك أيضاً رواية ابن عباس في مسلم، وفحواها أن أبا سفيان عرض على النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان[2].

ومعلوم أن أبا سفيان إنما أسلم عام الفتح وقد جاء إلى المدينة قبيل الفتح وهو على الشرك وهي عند النبي ﷺ كما أن أم حبيبة تزوجت النبي ﷺ قبل ذلك، وبعد وفاة زوجها عبيد الله بن جحش بأرض الحبشة.

وهذه الرواية من الأحاديث المشهورة بالإشكال كما يقول النووي[3] (ت:٦٧٦هـ)، لدرجة أن ابن حزم زعم أن عكرمة بن عمار وضعه.

قال ابن كثير: "وهذا القول منه لا يتابع عليه" وبعد أن أورد أقوالاً في توجيه الرواية خلص إلى أنّ الأحسن في هذا أنه أراد أن يزوجه ابنته

---

(١) ومما جاء فيه: (فرجعت مهموماً فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، وهذا هو موضع الدلالة)، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٨٢/٤.

(٢) مسلم: الجامع الصحيح، ١٩٤٥/٤ كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي سفيان.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم، بيروت، دار الفكر، ٦٣/١٦-٦٤.

الأخرى عزَّة لما رأى في ذلك من الشرف له، واستعان بأختها أم حبيبة كما في الصحيحين وإنما وهم الراوي هذا بتسمية أم حبيبة[1].

مقاييس ابن كثير في نقد المتن:

راجع ابن كثير متون المرويات والأقوال في موضوع السيرة آخـــذاً بعين الاعتبار الخطوات التي كان العلماء يقومون بهـــا وهـــم ينقـــدون النصوص والمرويات.

ومن هذه القواعد عرض المتن على القرآن الكريم ثم علـــى الســـنة المتواترة ثم على الإجماع ثم على العقل[2].

إن ممارسة هذا الفن وقراءة النصوص واستظهارها عوامل مكنـــت العلماء الراسخين من رد روايات وأحاديث بالنظر إلى المروي وألفـــاظ الحديث.

قال ابن دقيق العيد (ت:٧٠٢هـ): وأهل الحديث كثيراً ما يحكمون بذلك ـــ أي بالوضع ـــ باعتبار أمور ترجع إلى المروي وألفاظ الرسول ﷺ، وحاصله يرجع إلى أنه حصلت لهم لكثرة محاولة ألفاظ الرسول ﷺ هيئة نفسية أو ملكة يعرفون بها ما يجوز من ألفاظ الرسول ﷺ ومـــا لا

---

(١) ١٤٩/٦.

(٢) الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية، ص١٧٠، عثمان موافي: منهج النقد التـــاريخي الإســـلامي والمنهج الأوربي، الإسكندرية ١٩٨٤م، ص:٤٧-٤٩.

يجوز أن يكون من ألفاظه[1]، ويعد ابن القيم ــ وهو ممن نهل من المدرسة نفسها التي نهل منها ابن كثير ــ من أوائل العلماء الذين أصَّلوا بعض القواعد التي يمكن بواسطتها نقد متن الحديث[2].

لم يُهْمِل العلماء المسلمون إذن نقد المتن من خلال استخدام بعض القواعد والمقاييس التي رصدها بعض الباحثين أمثال: مسفر غرم الله الدميني في كتابه "مقاييس نقد متون السنة"[3]، وعصام البشير في كتابه "أصول منهج النقد عند أهل الحديث"[4]، ومحمد طاهر الجوابي في كتابه "جهود المحدثين في نقد متن الحديث النبوي"[5]، لكن هذا النوع من النقد ليس كلأً مباحاً لكل طالب، وليس باباً مفتوحاً لكل طارق.

قال ابن القيم ــ في إجابة على سؤال فحواه: هل يمكن معرفة الحديث الموضوع دون النظر في سنده؟: "إنما يَعْلَمُ ذلك من تضلع في معرفة السنن الصحيحة واختلطت بلحمه ودمه، وصار له فيها ملكة، وصار له اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار، ومعرفة سيرة الرسول

---

(١) الاقتراح في بيان الاصطلاح، تحقيق عامر حسن صبري، بيروت، دار البشائر، ط١، ١٤١٧، ص:٢٢٨.

(٢) انظر: نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول، تحقيق: حسن سماحي سويدان، بيروت، دار القادري، ط١، ١٤١١، وهذا الكتاب لابن القيم هو المشهور بالمنار المنيف في الصحيح والضعيف، انظر: بكر أبو زيد: ابن القيم حياته وآثاره، الرياض، مكتبة المعارف، ط٢، ١٤٠٥، ص١٩٤.

(٣) ط١، ١٤٠٤، ص:١١٧-١٦٤-١٨٣-١٩٥-٢٠٧-٢٢١.

(٤) نشرته مؤسسة الريان، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ، ص:٨٠.

(٥) نشرته مؤسسات عبد الكريم، تونس، ص:٤٥٦-٤٥٧.

ﷺ وهديه فيما يأمر به وينهى عنه ويخبر عنه ويدعو إليه، ويحبه ويكرهه ويشرعه للأمة، بحيث كأنه مخالط للرسول ﷺ كواحد من أصحابه[1].

على أي حال جاء نقد ابن كثير للمتن ــ كما سيتضح لاحقاً ــ في ضوء القواعد الموضوعة في هذا الباب، تلك القواعد التي جاءت حصيلة جهة تراكم عبر السنين والعصور، وفي السطور الآتية نأتي على أبرز المعايير التي سلكها ابن كثير وهو ينقد متون مروياته في مجال السيرة النبوية.

عرض الرواية على رواية أصح منها:

ثمة روايات انتقدها ابن كثير مشيراً إلى معارضتها ما هو أصح منها كرواية ابن إسحاق في إسلام أبي طالب عم الرسول ﷺ قبل وفاته، قال ابن كثير ــ بعد أن نقد الرواية من جهة الإسناد ــ: عارضه ما هو أصح منه وهو ما رواه البخاري رحمه الله، ثم ساق روايته وفيها حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب[2]، ثم أورد روايات أخرى معارضة لمضمون رواية ابن إسحاق من الصحيحين ومسند الإمام أحمد ومسند البزار وسنن الترمذي ومغازي يونس بن بكير[3].

(١) نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول، تحقيق حسن السماحي سويدان، ص:١٢.

(٢) ٤/٣٠٩.

(٣) ٤/٣١٠-٣١١.

كذلك راجع ابن كثير رواية ابن إسحاق وفيها أن أبا موسى الأشعري ممن هاجر من مكة إلى الحبشة، وما ورد في المسند عن الإمام أحمد من أن أبا موسى كان من المهاجرين إلى الحبشة من مكة وكذلك رواية أبي نعيم والبيهقي في الدلائل، وفيها عن أبي موسى: "أمرنا رسول الله ﷺ أن ننطلق مع جعفر بن أبي طالب على أرض النجاشي". وهي مروية بإسناد صحيح، وقارن تلك الروايات برواية البخاري ومسلم في هجرة أبي موسى الأشعري وفيها أنهم بلغهم مخرج رسول الله ﷺ وهم باليمن فخرجوا مهاجرين في بضعة وخمسين رجلاً في سفينة فألقتهم السفينة إلى النجاشي.

ونقل ابن كثير عن البيهقي قوله: "ولعل الراوي قد وهم في قوله أمرنا رسول الله أن ننطلق.. والله أعلم"[1].

وقد رد ابن كثير روايات لابن إسحاق وموسى بن عقبة، معارضاً إياها براويات صاحبي الصحيح مثل رواية ابن إسحاق في وقت نزول سورة "الضحى"[2]، وقول موسى بن عقبة، عن جميع من استشهد يوم أحد من المهاجرين والأنصار أنهم تسعة وأربعون رجلاً.

حيث عقّب على ذلك بقوله: "ثبت في الحديث الصحيح عند البخاري عن البراء أنهم قتلوا من المسلمين سبعين رجلاً"[3].

---

(١) ٤/١٧٤-١٧٦-١٧٧.

(٢) ٤/٤١.

(٣) ٥/٤٤٥.

لا غرابة أن يستخدم ابن كثير هذا المقياس الأصيل الذي يتجلى في مراجعة الرواية في ضوء الروايات الأخرى في الموضوع نفسه، إذ إن لهذا المنهج أثراً في كشف مميزات وعيوب المتن والإسناد، فالمقارنة بين الروايات سنداً ومتناً وسيلة لسبر غور الرواية[1] وتصنيفها بحسب ما يكتنفها من قوة أو ضعف، ومن ثم إلباسها المسمَّى المناسب لحالها.

استدعاء تاريخ التشريع:

بوسعنا أن نجد في سيرة ابن كثير أمثلة تدل على متابعته لتواريخ التشريعات وما نزل من الأحكام، ويهمنا هنا أن نذكر أن ابن كثير بحكم ثقافته في هذا الجانب نقد بعض المتون مستخدماً معرفته بتواريخ نزول هذا الحكم أو ذاك.

فقد ناقش ابن كثير رواية ابن هشام في خبر قدوم الأعشى الشاعر على رسول الله ﷺ في سياق أحداث العهد المكي، ومما ناقشه ابن كثير ما جاء في الرواية أن أهل مكة ذكروا له أنه يحرم الخمر، ومعلوم أن تحريمها بالمدينة بعد وقعة بني النضير.

وفي الراوية أن الأعشى خرج إلى رسول الله ﷺ يريد الإسلام وقال يمدح النبي ﷺ قصيدة مطلعها:

ألم تَغْتَمِضْ عيناك ليلة أرمدَا　　　وبتَّ كما باتَ السليم مسهَّدا

---

(١) العُمري: محمد علي قاسم: دراسات في منهج النقد عند المحدثين، الأردن، دار النفائس، ١٤٢٠هـ، ص:٣٠.

قال ابن هشام: فلما كان قريباً من مكة اعترضه بعض المشركين من قريش، فسأله عن أمره؟ فأخبره أنه يريد رسول الله ﷺ لِيُسْلم، فقال له: يا أبا بصير إنه يحرم الزنى، فقال الأعشى: والله إن ذلك لأمر مالي فيه من أرب، فقال: يا أبا بصير إنه يحرم الخمر. فقال الأعشى: أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات[1]، ولكني منصرف فأتروى منها عامي هـذا ثم آتيه فأُسلم.

قال ابن كثير: هكذا أورد ابن هشام هذه القصة هنا — في سياق أحداث العهد المكي — وهو كثير المؤاخذات لمحمد بن إسحاق رحمه الله، وهذا مما يؤاخذ به ابن هشام رحمه الله فالخمر إنما حرمت بالمدينة بعد وقعة النضير كما سيأتي بيانه فالظاهر أن عزم الأعشى على القدوم للإسلام إنما كان بعد الهجرة وفي شعره ما يدل على ذلك، وهو قوله:

ألا أيهذا السائلي أينَ يَمَّمْت فإنَّ لي لها في أهل يَثْرِب مَوعِدا

وكان الأنسب والأليق بابن هشام أن يؤخر ذكر هذه القصة إلى ما بعد الهجرة ولا يوردها هنا[2]. والله أعلم.

وعند البحث في تاريخ غزوة بني لحيان والتي صلى فيها المسلمون صلاة الخوف، إنما شرعت بعد الخندق ولو كانت صلاة الخوف مشروعة يوم الخندق لفعلوها. وكأنَّ ابن كثير هنا يرجح ما ذكره ابن

(١) العَلَلُ: الشربة الثانية أو الشرب بعد الشرب تباعاً. الفيروز ابادي: مجد الدين محمد بن يعقوب (ت:٨١٧هـ): القاموس المحيط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ، ص:١٣٣٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/٢٥٣-٢٥٤.

إسحاق وغيره من أهل المغازي في أن غزوة بني لحيان إنما كانت سنة ست من الهجرة، لتلك القرينة التي أشرنا إليها[1].

وكذلك تاريخ غزوة ذات الرقاع حيث يرى ابن إسحاق أنها في السنة الرابعة، وأن النبي ﷺ صلى بها صلاة الخوف[2].

ويرى الواقدي أنها في المحرم سنة خمس، وقد ذهب البخاري إلى أنها في سنة سبع بعد خيبر[3]، وفي معرض ترجيحه لكون ذات الرقاع بعد الخندق سنة خمس أشار ابن كثير إلى أن صلاة الخوف إنما شرعت بعد الخندق[4].

ويستدعي ابن كثير تاريخ تشريع تحريم المسلمات على المشركين عندما يناقش قول ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ بمكة لا يُحل ولا يحرم مغلوباً على أمره وأنه لم يقدر على أن يفرق بين ابنته زينب وزوجها أبي العاص بن الربيع. حيث يعقب ابن كثير على ذلك بالقول: إنما حرم الله المسلمات على المشركين عام الحديبية سنة ست من الهجرة[5].

---

(١) ٤/٥٥٣-٥٥٧.

(٢) ابن هشام: سيرة النبي ﷺ ٣/٢١٤.

(٣) المغازي، ٢/٥٦٠.

(٤) ٥/٥٦٠.

(٥) ٥/٢٠٦.

كذلك استدعى ابن كثير تاريخ تحريم الكلام في الصلاة وتاريخ فرض الحجاب عند مناقشته لبعض الروايات(١)، ورد ابن كثير رواية من روى أن ملكاً من وراء الحجاب أذّن ليلة الإسراء برسول الله ﷺ، وأن هذا الملك قَدَّم النبي ﷺ فأَمَّ بأهل السماء ومنهم آدم ونوح؛ لأَنَّهُ لو كان النبي سمع الأذان ليلة الإسراء لأوشك أن يأمر به بعد الهجرة في الدعوة إلى الصلاة(٢). والله أعلم.

ولا جدال في أن ابن كثير هنا وضع نصب عينيه ما ورد من روايات في تشريع الأذان بعد الهجرة وقد ورد فيها أنَّ المسلمين هموا أن يتخذوا ناقوساً ليضرب به للناس لجمعهم عند الصلاة، كما ورد أهم تشاوروا في المناداة للصلاة(٣).

استدعاء الحقائق والمعلومات التاريخية

ثمة حقائق ومعلومات تاريخية، مشهورة مقررة عند كُتَّاب السير والمغازي وغيرهم من المحدثين والمؤرخين يظهرها ابن كثير لردِّ روايات وأقوال تنطق بضد ما يفهم من تلك الحقائق، وقد مر بنا رواية شريك ابن عبد الله ورواية ابن عباس في عرض أبي سفيان ابنته أم حبيبة على رسول الله ﷺ.

---

(١) الفصول في سيرة الرسول ﷺ ص:١٨٣.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ٥٧٦/٤.

(٣) انظر: إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، ص: ١٥٠، ابن حجر، فتح الباري، ج٢،ص:٧٧-٧٨.

ومن الروايات التي أنكرها ابن كثير استناداً إلى أن أحوال النبي ﷺ مشهورة ومعروفة تلك المرويات المنكرة التي لا تتوافق مع أحوال نبوية مقطوع بوقوعها بكيفية محددة، ومن ذلك ما روي عن أبي سعيد أنه قال: "حج النبي ﷺ وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة وقد ربطوا أوساطهم ومشيهم خليط من الهرولة".

قال ابن كثير: "حديث منكر ضعيف الإسناد"، ثم علّق على ما قاله البزار[١]: "معناه أنهم كانوا في عمرة إن ثبت الحديث؛ لأنه عليه السلام: إنما حجَّ حجَّة واحدة وكان راكباً وبعض أصحابه مشاة".

قلت ـــ ابن كثير ـــ:

لم يعتمر النبي ﷺ في شيء من عُمرة ماشياً لا في الحديبية ولا في القضاء ولا الجِعرَّانة ولا في حجة الوداع وأحواله ﷺ أشهر وأعرف من أن تخفى على الناس بل هذا الحديث منكر شاذ لا يثبت مثله[٢].

كذلك عقب ابن كثير على رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: إنما قرن رسول الله ﷺ في حجة الوداع خشية أن يُصدَّ عن البيت، قال ابن كثير: هذا حديث غريب سنداً ومتناً، ثم انبرى يناقش متنه قائلاً: "من الذي يصده عليه الصلاة والسلام وقد أظهر الله الإسلام وفتح البلد الحرام وقد نودي برحاب منى أيام الموسم الماضي أن لا يحج بعد العام

(١) البزار: إسحاق بن عبد الله الكوفي له المسند (ت:٣٠٧هـ)، ابن كثير، البداية والنهاية، ٨١٣/١٤.
(٢) ٤١٩/٧-٤٢٠.

مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان، وقد كان معه عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع قريب من أربعين ألفاً"[1].

وراجع ابن كثير رواية بعض المفسرين التي مالت إلى القول بأن أبا طالب هو المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام:٢٦].

قال ابن كثير: "وفيه نظر، ثم اختار القول بأن المراد هم المشركون الذين ينهون الناس عن محمد، وأبو طالب لم يكن بهذه المثابة بل كان يصد الناس عن أذية رسول الله ﷺ، وأصحابه بكل ما يقدر عليه من فعال ومقال ونفس ومال، ولكن مع هذا لم يقدر الله له الإيمان لما له تعالى في ذلك من الحكمة".

وواضح من هذا الكلام أن ابن كثير يستند في تعقيبه على الرواية المذكورة إلى حقيقة مشهورة في مصادر السيرة الأصلية فحواها أن أبا طالب كان يذود عن رسول الله ﷺ إلى جانب قرائن أخرى منها أنَّ الخطاب قصد به جماعة من المشركين المذمومين كما جاء في نهاية الآية[2].

وثمة روايات عقب عليها ابن كثير لمناقضتها ومخالفتها لحقائق تاريخية مشهورة في مصادر السيرة والمغازي، كرواية مسلم في أن سعد بن عبادة

---

(١) ٧/٤٧٩.

(٢) ٤/٣١٤-٣١٥.

هو المشير على رسول الله ﷺ يوم بدر بالمضـــي لمواجهـــة قـــريش[1]، والصواب سعد بن معاذ ويذكر ابن كثير أن المشهور أن سعد بن عبادة رده ﷺ من الطريق، قيل: لاستنابته على المدينة، وقيل: لدغته حية[2].

وراجع قول أبي بكر بن أبي شيبة أن أول من كتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ أبي بن كعب، قال ابن كثير: كأنّه يعـــني بالمدينـــة وإلا فالسور المكية لم يكن أبي بن كعب حال نزولها. وقد كتبها الصـــحابة بمكة[3].

وعَدَّ ما ورد في رواية المعتمر بن سليمان عن أبيه عن السميط عـــن أنس من أن عدد المسلمين يوم حنين كانوا ستة آلاف، وأهم حاصـــروا الطائف (٤٠) ليلة من غرائب هذه الرواية والصواب أن عدد المســـلمين (اثنا عشر ألفاً) كما في الروايات المشهورة وأن حصار الطائف لم يصل إلى شهر بل كان دون العشرين ليلة[4].

وفي كتاب "دلائل النبوة" في باب إخباره ﷺ عن الغيوب المســـتقبلة عقب ابن كثير على رواية البيهقي بسنده عن ثعلبة بن يزيد، وفيهـــا أن أصحاب علي ﷺ سألوه أن يستخلف فقال: (أتركك كمـــا تـــرككم رسول الله ﷺ).

---

(١) الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر، حديث (١٧٧٩)، ٣/١٤٠٣ـــ ١٤٠٤.

(٢) ٥/٢٢٧.

(٣) ٨/٣٢٢.

(٤) ٧/٩٠-٩١.

قال ابن كثير: المشهور أن علياً لَمَّا طُعِن أوصى إلى ابنه الحسن وأمره أن يركب الجنود[1] وهو بهذا يلمح إلى بطلان تلك الرواية وتهافتها.

ووقف ابن كثير كما وقف غيره من العلماء عند الكتاب المزعوم بأن رسول الله ﷺ وضع الجزية عن اليهود الخيابرة، وهو كتاب اغتر به بعض العلماء ومنهم أبو علي بن خيرون فقال بإسقاط الجزية عنهم.

يذكر ابن كثير أنَّه وقف على الكتاب فإذا هو مكذوب فإن فيه شهادة سعد بن معاذ وقد مات قبل خيبر وفيه شهادة معاوية بن أبي سفيان ولم يكن أسلم يومذاك، وفيه وضع الجزية ولم تكن قد شرعت بعد[2].

وهكذا يضع ابن كثير يده على تناقضات يحملها هذا الكتاب المزعوم مع حقائق تاريخية مقررة مما يؤكد زيف الكتاب.

المحاكمة العقلية للمتون:

في أثناء مراجعته لبعض المتون والأقوال يقوم ابن كثير بمحاكمة عقلية لبعض النصوص، التي يرد في متونها ألفاظ وعبارات لا تدخل في دائرة التصور. وتأتي مراجعته تلك في ضوء ما اكتسبه من علوم وفي ضوء مسلمات عقلية يؤكدها الحس والمشاهدة وهنا لا بدَّ من التنبيه

---

(١) ٢٠٧/٩.

(٢) ٣٥٥/٦-٣٥٦، راجع أيضاً: ابن القيم: نقد المنقول، ص:٩٠-٩٢.

على أن ما ثبت في الحديث من معجزات ونحوها لا تدخل أساساً تحت طائلة المراجعة والنظر، كما أن العقل الخالي من علوم الشرع ليس بوسعه النظر في المتون من هذه الزاوية.

وضع ابن كثير عدداً من المتون تحت دائرة المراجعة العقلية، والتساؤل الذي يفضي إلى الرد والاستبعاد، ففي فصل "ذكر أول من أسلم ثم ذكر متقدمي الإسلام من الصحابة"يقول عن الحديث المنسوب إلى علي ﷺ: "أنا الصديق الأكبر صليت قبل الناس بسبع سنين"؟. الحديث منكر بكل حال، ولا يقوله علي ﷺ وكيف يمكن أن يصلي قبل الناس بسبع سنين هذا الأمر لا يتصور أصلاً[1].

ويقول ابن كثير تعليقاً على رواية أبي داود الطيالسي في حفر الخندق "كان الناس يحملون لبنة لبنة" حمل اللبن في حفر الخندق لا معنى له، والظاهر أنه اشتبه على الناقل"[2].

ويراجع قول من قال: إن تأخير الصلاة يوم الخندق وقع نسياناً، فيذكر: "أنه يبعد أن يقع هذا (النسيان) من جمع كبير، مع شدة حرصهم على المحافظة على الصلاة، كيف وقد روي أهم تركوا يومئذٍ الظهر والعصر والمغرب حتى صلوا الجميع في وقت العشاء"[3].

---

(١) ٦٦/٤.

(٢) ٥٣٨/٤.

(٣) ٥٤/٦.

وحيث إن مجموعة من المصنفين في الخصائص والمعجزات انساقوا وراء الأحاديث غير الصحيحة والموضوعة، فثمة أحاديث وروايات نشط قلم ابن كثير في تفنيدها سنداً ومتناً، وكان من وسائله النقدية المناقشة العقلية وإثارة التساؤل حول الرواية وهذا ينطبق على رواية رد الشمس بعد مغيبها لعلي بن أبي طالب ﵁ بدعوة النبي ﷺ، حيث تطرق إليها في باب (دلائل النبوة الحسية).

وبعد ما ذكر ابن كثير أن الحديث ضعيف ومنكر من جميع طرقه، قال: "ومثل هذا الحديث لا يقبل فيه خبر واحد إذا اتصل سنده؛ لأنه من باب ما تتوافر الدواعي على نقله فلا بد من نقله بالتواتر والاستفاضة لا أقل من ذلك، ونحن لا ننكر هذا في قدرة الله تعالى"[1].

ومما أورده ابن كثير التساؤل التالي إزاء متن الرواية المتضمن أن الموجب لرد الشمس هو فوات صلاة العصر على علي ﵁: "أيجوز أن ترد الشمس لأبي الحسن حين فاتته صلاة العصر ولا ترد لرسول الله ﷺ ولجميع المهاجرين والأنصار وعلي فيهم حين فاتتهم صلاة الظهر والعصر والمغرب يوم الخندق؟ وأيضاً مرة أخرى حين عرس رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار حين قفل من غزوة خيبر، فذكر نومهم عن صلاة

(١) ٨/٥٦٩.

الصبح وصلاتهم لها بعد طلوع الشمس فلم يرد الليل على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه رضي الله عنهم[1].

وفي باب ما أخبر به ﷺ من الكائنات المستقبلة في حياته وبعدها فوقعت طِبق ما أخبر سواءً بسواء.

يقف ابن كثير: مراجعاً للرواية الواردة عند أبي داود الطيالسي ومما جاء فيها.

رؤية النبي ﷺ لبني أمية يخطبون على منبره فساءه ذلك، فنزلت: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر]، ونزلت: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر]، وفي الرواية حمل المقصود بألف شهر على مدة ملك بني أمية قال القاسم[2]: فحسبنا ذلك فإذا هو ألف شهر لا يزيد يوماً ولا ينقص[3].

وهو حديثٌ منكر كما صرح بذلك الحافظ المزي وفي معرض نقده لمتن الرواية وضح ابن كثير أن مجموع سنوات الدولة الأموية لا يطابق

---

(١) ٨/٥٧٠.

(٢) القاسم بن الفضل الحداني. روى عنه ابن مهدي وأبو داود الطيالسي مات سنة ١٦٧هـ صدوق، وثّقه ابن مهدي والقطان وأحمد بن معين، ابن حجر: تهذيب التهذيب ٨/٣٣٠، الذهبي: ميزان الاعتدال ٣/٣٧٧.

(٣) ٩/٢٧١.

ألفاً كما يزعم القاسم بن الفضل، وأشار إلى أنه يلزم مما ذكره أن تكون دولة عمر بن عبد العزيز مذمومة وهذا لا يقوله أحد من أئمة الإسلام فإنهم مُصَرِّحون بأنه أحد الخلفاء الراشدين، ونبه ابن كثير على أن تفضيل ليلة القدر — وهي ليلة عظيمة — على دولتهم لا يلزم منه ذم تلك الدولة، فليتأمل هذا، فإنه دقيق يدل على أن الحديث في صحته نظر؛ لأنه إنما سيق لذمِّ أيامهم[1].

ويراجع ابن كثير بعض مقررات العلماء واجتهاداتهم قبله من كتاب السيرة مدخلاً إياها دائرة المناقشة العقلية.

ومن ذلك: تعقيبه على السهيلي (ت:٥٨١هـ) ذلك أنه بعد إيراده حديث: (أحد جبل يحبنا ونحبه وهو على باب من أبواب الجنة، عير يبغضنا ونبغضه وهو على باب من أبواب النار).

قال السهيلي مقوياً لهذا الحديث وقد ثبت أنه عليه الصلاة والسلام قال: (المرء مع من أحب) قال ابن كثير في (غزوة أحد): هذا من غريب

---

(١) ٩/٢٧١-١٧٣، هذا الحديث صحَّحَ إسناده الحاكم في مستدركه، وقال الذهبي في تلخيص المستدرك (المطبوع بهامشه) روى عن يوسف، نوح بن قيس، وما علمت أن أحداً تكلم فيه، والقاسم وثقوه رواه عنه أبو داود والتبوكي، وما أدري آفته من أين؟ المستدرك، ١٧١/٣، ويقول الألباني في ضعيف سنن الترمذي عن هذا الحديث ضعيف الإسناد مضطرب، ومتنه منكر، ضعيف سنن الترمذي، دمشق، نشر المكتب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ص: ٤٣٦، ح(٦٦٣).

صنع السهيلي فإن هذا الحديث إنما يراد به الناس ولا يسمى الجبل امرأً[١].

ويرد على بعض أقوال كتاب السيرة قبله مما بنوه على اجتهادهم كالبيهقي عندما يقول: "هذه الرواية تدل على أن قبورهم ـ الرسول ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما ـ مسطحة؛ لأن الحصباء لا تثبت إلا على المسطح". يعقب ابن كثير:هذا عجيب من البيهقي رحمه الله فإنه ليس في الرواية ذكر الحصباء بالكلية وبتقدير ذلك فيمكن أن يكون مسطحاً وعليه الحصباء مغروزة بالطين ونحوه[٢].

أقوال شيوخه:

مر بنا القول بِأن ابن كثير ينتمي إلى مدرسة شامية عنيت بعلوم الحديث والسنة وجعل نقد الرواية في مقدمة أولوياتها، ولذلك لا غرابة أن يعول ابن كثير على آراء شيوخه من أعلام هذه المدرسة في نقد بعض الروايات، خاصة العلماء الثلاثة: ابن تيمية والمزي والذهبي.

فقد أورد ابن كثير رأي ابن تيمية فيما ورد عند أبي داود وغيره أن من كُتَّاب النبي ﷺ كاتباً اسمه (السجل) وهو رأي يذهب إلى أن الخبر

(١) ٣٣٨/٥، وعير: جبل يشرف على المدينة من الجنوب وهو حد حرم المدينة من الجنوب (محمد محمد شُراب: المعالم الأثرية في السنة والسيرة، دمشق: دار القلم، ط١، ١٤١١هـ، ص:٢٠٣-٢٠٤).

(٢) ١٥٤/٨.

موضوع وإن كان في سنن أبي داود، وقد عرض ابن كثير هذا الـــرأي على شيخه المزي فقال: وأنا أقوله[1].

قال ابن القيم: سمعت شيخنا أبا العباس بن تيميـــة، يقـــول: هـــذا الحديث موضوع ولا يعرف لرسول الله ﷺ كاتب اسمه السجل قـــط، وليس في الصحابة من اسمه السجل، وكُتَّاب النبي ﷺ معروفون، لم يكن فيهم من اسمه السجل[2].

وأورد ابن كثير رأي شيخه المزي فيما أورده القاضـــي عيـــاض في كتابه (الشفا) حيث ذكر أنه كان للنبي ﷺ حمار يسمى (زياد بن شهاب وأن رسول الله ﷺ كان يبعثه ليطلب بعض الصحابة) حيث أنكر المزي ذلك إنكاراً شديداً[3]، كما عرض عليه ما أورده السهيلي من حكايـــة الحمار الذي كلم النبي ﷺ وأنه من نسل سبعين حماراً كل منها ركبـــه نبي. فقال الشيخ المزي ـــ رحمه الله ـــ: "ليس له أصل وهو ضحكة"[4].

وبعد أن يناقش رواية رد الشمس يذكر أن ممن صرح بوضعه شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي والعلامة أبا العباس ابن تيمية[5]، وفي موضـــع

---

(١) ٨/٣٤٠.

(٢) انظر: عبد الرحمن الفرايوئي: شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحـــديث وعلومـــه، الريـــاض، دار العاصمة، ط١، ١٤١٦هـ، ٢/٥١٠.

(٣) ٨/٣٨٣.

(٤) الفصول في سيرة الرسول ﷺ، ص:٢٥٩.

(٥) ٨/٥٨٤.

آخر يقول: "صرح بوضعه شيخاي الحافظان الكبيران أبو الحجاج المزي وأبو عبد الله الذهبي)[1].

ما أهمل ابن كثير نقده من متون:

بذل ابن كثير جهداً ملحوظاً في جمع مرويات السيرة من مصادر شتى، كما بذل جهداً مماثلاً في أسانيدها ومتونها، كما مر بنا، ومع ذلك لا بد من القول بأنَّ هناك روايات ساقها ابن كثير دون مراجعة ونظر، لم ينقد متونها، ولم يوضح لنا رأيه فيها. مع أنه ينبه أحياناً على عيوب الإسناد وأحوال رجاله. والمتأمل في المرويات التي يسوقها ابن كثير يلمس حاجتها إلى وقفات نقدية استناداً إلى حقائق تاريخية وعقلية وأسلوبية.

ومن ذلك ظاهرة الأشعار التي يرويها ابن إسحاق في السيرة في مرحلة ما قبل المبعث وفي مرحلة الدعوة بمكة وأبرزها قصيدة أبي طالب اللامية وقد أورد منها ما يزيد على (٩٠) بيتاً وقال عنها: هذه قصيدة عظيمة بليغة جداً لا يستطيع أن يقولها إلا من نسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع وأبلغ في تأدية المعنى منها جميعاً[2]، والذي نفهمه من هذا الكلام أن ابن كثير يؤيد نسبتها إلى أبي طالب، ولكنه لم يذكر قرائن أسلوبية أو لغوية جلية تؤيد نسبتها إلى عصر السيرة المكية، ولم

---

(١) ٣٦٧/٩.

(٢) ١٣٤/٤، وقد استغرقت قصيدة أبي طالب تلك الصفحات (١٣٥-١٤٣).

يورد طرقاً أخرى للقصيدة مع أن الأموي أوردها في مغازيه مطولة لكن هل رواها عن ابن إسحاق أو عن غيره[1]؟

وهناك أشعار يرويها ابن إسحاق عن عبد المطلب[2] وورقة بن نوفل[3] وأمية بن أبي الصلت[4]، وهي في أمس الحاجة إلى قراءة نقدية من جانب ابن كثير، ومعلوم أن ظاهرة الأشعار في السيرة من الظواهر التي استأثرت باهتمام قدماء النقاد اللغويين كابن سلام الجمحي (ت:٢١٣هـ)، الذي يذكر أن ابن إسحاق هجن الشعر وأفسده وحمله كلَّ غثاء، وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر، إنما أوتى به فأحمله، وانتقد بشكل خاص الشعر القديم المحمول عن عاد وثمود وأشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط.

وفي موضع آخر يذكر أن قصيدة أبي طالب اللامية زيد فيها وطولت[5]، ويقول ابن هشام مهذب سيرة ابن إسحاق.. بعدما أورد القصيدة اللامية لأبي طالب: هذا ما صح لي من القصيدة، وبعض أهل

---

(١) ورد في الحديث الصحيح عن ابن عمر: من أبيات قصيدة أبي طالب بيت واحد هو قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ

البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الاستسقاء، ٢/١٥.

(٢) ٣/٣٨٦.

(٣) ٣/٤٧٠-٤٧١.

(٤) ٣/٢٨٥-٢٩٦.

(٥) طبقات الشعراء، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١٤٠٨،٢هـ، ص:١٣-٩٥.

العلم ينكر أكثرها[1]، وكأنَّ ابن سلام وابن هشام قد فتحا بذلك باب النقاش حول تلك القصيدة الطويلة وهو نقاش كان الأولى بكتاب السيرة المتأخرين كابن كثير الإسهام فيه. ويلحظ أن بعض الأشعار التي يوردها ابن كثير تتناقض مع وقائع تاريخية كالشعر المنسوب إلى العباس بن مرداس السلمي ﷺ في باب هواتف الجان، حيث ينقل ابن كثير عن أبي نعيم خبر العباس وصنمه ضمار، حيث يذكر أنه سمع هاتفاً من جوف الصنم ثم سمع هاتفاً وهو في إبله بطرف العقيق، وذلك بعد رجوع الناس من الأحزاب، وفي القصيدة:

ووجهت وجهي نحو مكة قاصداً   أبايع نبي الأكرمين المباركا[2]

فكيف يذهب العباس بن مرداس إلى مكة ليبايع النبي ﷺ بعد الأحزاب كما جاء في هذا الخبر المزعوم المتناقض؟

وثمة ظاهرة أخرى في كتب السيرة تأصَّلت قبل ابن كثير وأصبحت أساسية في كتب السيرة والدلائل وهي هواتف الجان المبشرة برسول الله ﷺ وقد ألف فيها محمد بن جعفر الخرائطي (ت:٣٢٧هـ)، وابن أبي الدنيا (ت:٢٨١هـ)[3] وقد ورد عند ابن كثير أخبار أسطورية في هذا الباب، كرواية الخرائطي عن شيخه عبد الله بن محمد البلوي في قصة جارية دوس وغلامها اللَّذَيْنِ أخبرا بخروج خير الأنبياء ومنع خبر السماء، وخبر

(١) ابن هشام: سيرة النبي ﷺ، ١/٢٩٨.

(٢) ٣/٥٨٣.

(٣) انظر: المنجد: معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ، ص:٦١.

ثلاثة نفر من قريش مع صنم لهم[1]، هي أخبار أسطورية يرويها وضاعون أمثال عبد الله البلوي وعمارة بن زيد[2]، وخبر تنبؤ الكاهن سطيح لأربعة من قريش منهم هاشم بن عبد مناف بما يكون بعدهم وقد تنبأ بخروج فتى يدعو إلى الرشد ومن يلي بعده من الخلفاء[3]، في عبارات مسجوعة متكلفة يظهر فيها أثر الوضع وعنصر الخيال، وأسلوب الأسطورة والحكاية الخرافية.

والحق أن ابن كثير نبه على ما يلابس بعض الروايات من ضعف أو وضع ونكارة لكن يبدو أن الولع بالغريب، واحتذاء الآخرين ومضامين بعض الأخبار المحتوية على فتن وملاحم قادمة، وطبيعة الاتجاه الجمعي الذي من أبرز مظاهره حشد أكبر قدر من الروايات ولو جاء ذلك على حساب التجويد المنهجي وتطبيق المعايير المعتبرة في الصناعة الحديثية كل هذه عوامل جَرَّت ابن كثير إلى سياق بعض الأخبار الأسطورية وتضمينها كتابه، فهو يقول بعد ذكره لإحدى حكايات سطيح: "هذا أثر غريب كتبناه لغرابته وما تضمن من الملاحم"[4]، ويقول في خبر قدوم هامة بن هيم حفيد إبليس المزعوم وهو خبرٌ موضوع[5]، "حديث غريب

---

(١) ٥٧٥/٣-٥٧٧-٥٧٩.

(٢) الذهبي: ميزان الاعتدال، ٤٩١/٢-٧٧/٣.

(٣) ٦١٥/٣-٦٢١.

(٤) ٦٢٠/٣.

(٥) ابن الجوزي: الموضوعات، تحقيق توفيق حمدان، بيروت، ١٤١٥هـ، ١٤٩/١، الذهبي: ميزان الاعتدال ١٨٦/١-١٨٨، الشوكاني: الفوائد المجموعة، ص:١٢٥.

جداً بل منكر أو موضوع، لكن مخرجه عزيز أحببنا أن نـــورده كمـــا أورده". (يعني البيهقي)[١].

ويقول عن حديث مخاطبة الحمار للنبي ﷺ أنكره غير واحد من أئمة الحفاظ الكبار ثم يسوق الحديث[٢]، وهو خبر موضوع نبه على نكارته في موضوع سابق عند الحديث عن أفراس النبي ﷺ ومراكيبه[٣].

كذلك ساق ابن كثير روايات هي بأمس الحاجة إلى نقد متونهـــا، ففي موضوع المولد يورد ما رواه ابن إسحاق عن المرأة التي تعرضـــت لعبد الله والد النبي ﷺ. كذلك يأتي برواية مشابهة عن تعـــرض امـــرأة أخرى من خثعم لعبد الله والد النبي ﷺ[٤]، وهي حكايـــات نســـجها وضاعون ثم إنها منكرة سنداً ومتناً ومن يقرأ رواياتها المختلفة يدرك مدى الاختلاف والاضطراب في سوقها، ومثل ذلك الاضطراب والاخـــتلاف ينبغي أن يطرح من دراسات السيرة الجادة[٥].

وفي المولد النبوي ذاته أورد ابن كثير (حديثاً غريباً مطولاً) ومما جاء فيه: أنه لما حمل برسول الله ﷺ، نطقت كل دابة كانت لقـــريش تلـــك الليلة: قد حمل برسول الله ورب الكعبة، ومما جاء فيه أن الله فتح لمولده

---

(١) ج٧، ص:٢٧٣.

(٢) ٤٧/٩، انظر الذهبي: ميزان الاعتدال ٣٤/٤، قال ابن الجوزي: لعن الله واضعه فإنه لم يقصد إلا القدح في دين الإسلام، ابن الجوزي: الموضوعات ٢٩٣/١-٢٩٤.

(٣) ٣٨٣/٨.

(٤) ابن كثير: ٣٩٠/٣.

(٥) أكرم العُمري: السيرة النبوية الصحيحة: المدينة، مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٢هـ، ٩٥/١.

أبواب السماء وجناته في حديث طويل[1]، أورده ابن كثير على ما فيه في نهاية سيرته معللاً ذلك بقوله: "ليكون الختام نظير الافتتاح" فهل جاء اختفاء المقاييس النقدية لصالح اعتبارات تتعلق بمسألة التناسب بين الفصول والأبواب والرغبة في التماثل بين الافتتاح والختام؟

وثمة أخبار أخرى كان مطلوباً تفعيل قواعد النقد الحديثي إزاءها وتجاوز صناعة النقل والجمع لتكون سيرة ابن كثير معبرة عن قواعد المنهج النقدي المشار إليه على نحو دقيق.

إن تلك الأخبار يدفع بها الرواة والنقلة بغيرة شد انتباه العامة بهذه الموارد القصصية الأسطورية وهو اتجاه فاسد، يؤدي إلى إفراغ السيرة النبوية من دلالاتها، وقد نبه غير واحد من أئمة المسلمين على خطورة تلك الموضوعات..

يذكر البيهقي أن الاعتماد على الآثار الصحيحة، وتمييز الصحيح من غيره مما يقطع الطريق على أهل البدع أن يجدوا مغمزاً فيما يعتمد عليه أهل السنة[2]، كما مر بنا تساؤل الذهبي عندما يقول: فلماذا يا قوم نتشبع بالموضوعات فيتطرق إلينا مقال ذوي الغل والحسد ولكن من لا يعلم معذور؟ كما يذكر أن النبي ﷺ غني بمدحه التنزيل والأحاديث المتواترة والآحاد النظيفة[3].

---

(١) ٩/٤٠٨-٤١٠.

(٢) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ١/٤٧.

(٣) سير أعلام النبلاء، ج٢، ص:٢٧٦.

وابن كثير نفسه يذكر أن هناك أخباراً في موضوع وفاة الـــنبي ﷺ، فيها نكارة وغربة شديدة ولا سيما ما يـــورده القصـــاص المتـــأخرون وغيرهم فكثير منها موضوع لا محالة وفي الأحاديث الصحيحة والحسنة المروية في الكتب المشهورة غنية عن الأكاذيب وما لا يعرف سنده[1].

---

(١) البداية والنهاية، ج٨، ص:٧٨.

الخاتمة

تناول البحث مراجعات ابن كثير ونقده لمتون مرويات السيرة النبوية من خلال استقراء ودراسة سيرته المضمنة في كتاب "البداية والنهاية".

وقد اتضح لنا أنّ ابن كثير راجع متوناً كثيرة في مجال السيرة النبوية آخذاً بعين الاعتبار الخطوات التي كان العلماء يقومون بها وهم ينقدون النصوص والمرويات، ومما برز عند ابن كثير من معايير في باب نقد المتن استدعاء تاريخ التشريعات وزمن نـــزول الأحكام والمحاكمـــة العقليـــة للمتون.

ومع أن البحث أبرز حقيقة وجود جهد لابن كثير في نقد المتون، إلا أنه ساق بعض الأخبار والروايات التي تساهل المؤلفون قبله في إيرادهـــا ونقلها دون أن ينقد متنها وأن يراجع معطياتها.

المصادر والمراجع

ـ ابن قيم الجوزية، حياته وآثاره: بكر أبو زيد، الرياض، مكتبة المعارف، ط٢ ، ١٤٠٥هـ.

ـ ابن كثير ومنهجه في التفسير، إسماعيل عبد العال، القاهرة، مكتبة الملك فيصل الإسلامية، ط٤، ١٩٨٤م.

ـ أصول منهج النقد عند أهل الحديث: عصام البشير، بيروت، مؤسسة الريان، ط٢، ١٤١٢.

ـ أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي، تحقيق علي أبو زيد، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤١٨هـ.

ـ الإمام ابن كثير، سيرته ومؤلفاته ومنهجه في كتابة التاريخ: مسعود الندوي، دمشق، دار ابن كثير، ط١، ١٤٠٤هـ.

ـ البداية والنهاية: لابن كثير، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، القاهرة، دار هجر، ط١، ١٤١٧هـ.

ـ الجامع الصحيح: للإمام مسلم، إستانبول، تركيا، نشر المكتبة الإسلامية (د.ت).

ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: لابن حجر، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، دار الكتب الحديثة (د.ت).

ـ الذهبي ومنهجه في كتابة تاريخ الإسلام: بشار عواد معروف، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط١.

ـ الذيل على طبقات الحنابلة: لابن رجب الحنبلي، بيروت، دار المعرفة.

ـ السيرة النبوية الصحيحة: أكرم ضياء العمري، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ١٤٢٠هـ.

ـ السيرة النبوية: لابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، بيروت، دار المعرفة ١٣٩٦هـ.

ـ الفصول في سيرة الرسول ﷺ : لابن كثير، تحقيق محمد عيد الخطراوي ومحيي الدين مستو، دمشق، دار الكلم الطيب، ط٩، ١٤٢٠هـ.

ـ القاموس المحيط: للفيروزابادي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ.

ـ الكفاية في علم الرواية: لأبي بكر أحمد بن علي، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.

ـ المستدرك على الصحيحين: للحاكم، بيروت دار المعرفة (د.ت).

ـ المعالم الأثيرة في السنة والسيرة: محمد حسن شراب، بيروت، الدار الشامية، ١٤١١هـ.

ـ المغازي من تاريخ الإسلام للذهبي، تحقيق: محمد محمود حمدان، القاهرة، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ.

ـــ الموضوعات لابن الجوزي: تحقيق توفيق حمدان، بيروت، ١٤١٥هـ.

ـــ تاريخ الإسلام، السيرة النبوية: تحقيق عمر تـــدمري، بـــيروت، دار الكتاب، ط١، ١٤٠٧هـ.

ـــ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي، تحقيق: عـــزت علي عطية وموسى محمد علي، القاهرة، دار الكتب الحديثة (د.ت).

ـــ جهود المحدثين في نقد متن الحديث النبوي الشريف: محمـــد طـــاهر الجوابي، نشر مؤسسات عبد الكريم، تونس.

ـــ دراسات في منهج النقد عند المحدِّثين: محمد علي العمـــري، الأردن، دار النفائس، ١٤٢٠هـ.

ـــ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للبيهقي: تحقيق: عبـــد المعطي قلعجي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

ـــ دلائل النبوة: لأبي نعيم، تحقيق محمد رواس قلعجي وعبد البر عباس، بيروت، دار النفائس، ط٢، ١٤٠٦هـ.

ـــ زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم: تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط، بيروت، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٣٩٩هـ.

ـــ سير أعلام النبلاء: (أجزاء مختلفـــة) منـــها ج١: تحقيـــق: شـــعيب الأرناؤوط، بيروت، ١٤١٤هـ، ج٨ تحقيق شعيب الأرنـــاؤوط ونـــذير حمدان، بيروت، ١٤١٧هـ.

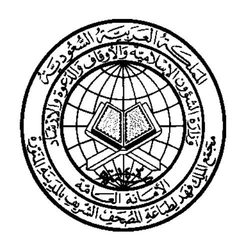
ـــ سيرة النبي ﷺ: لابن هشام، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، القاهرة،

دار الفكر ١٣٥٦هـ.
ـ صحيح البخاري: للإمام البخاري، تركيا، المكتبة الإسلامية، (د.ت).
ـ صحيح السيرة النبوية: إبراهيم العلي، عمان، دار النفائس، ط٢ ، ١٤١٦هـ.
ـ طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، تحقيق: عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحي، القاهرة، ١٣٨٥هـ.
ـ طبقات الشافعية لابن شهبة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ.
ـ طبقات الشعراء: لابن سلام، الناشر جوزيف هل بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٨هـ.
ـ طبقات المفسرين: للداودي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ.
ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: لابن سيد الناس، ط٢، بيروت، دار الجيل، ١٩٧٤م.
ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لابن حجر، بيروت، دار الفكر، (د.ت).
ـ مصادر السيرة النبوية وتقويمها: فاروق حمادة، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٤٠٠هـ.
ـ معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ: صلاح الدين المنجد، بيروت، دار

الكتاب الجديد، ط١، ١٤٠٢هـ.
ـــ مقاييس نقد متون السنة: مسفر الدميني، الرياض، ط١، ١٤٠٤هـ.
ـــ ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، دار المعرفة.
ـــ نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول: لابن القيم، تحقيق: حسن سماحي سويدان، بيروت، دار القادري، ط١، ١٤١١هـ.
ـــ الاقتراح في بيان الاصطلاح: لابن دقيق العيد، تحقيق عامر حسن صبري، بيروت، ط١، دار البشائر، ١٤١٧.

جدول المحتويات

المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف
بالمدينة المنورة



منهجية التأليف في السيرة النبوية

ابن كثير ومراجعاته ونقده لمتون مرويات السيرة النبوية نموذجا

د. عبد الرحمن بن علي السنيدي

ندوة
عناية المملكة العربية السعودية
بالسنة والسيرة النبوية